

الفصل الرابع

دور الوزراء في الحياة العمرانية والأدبية

- الوزراء والحياة العمرانية.
- الوزراء وتحصين المدن.
- دور الوزراء في الأدب.

الوزراء والحياة العمرانية:

كان للرخاء الذي عم بلاد إفريقية الحفصية في عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم أثر كبير في قيام نهضة عمرانية راقية تشهد عليها الآثار العمرانية التي وصفها المؤرخون والرحالة في كتاباتهم، حيث بلغت الهندسة والعمارة أوج عظمتها بسبب وجود العمارة المحلية داخل إفريقية، وما هو مستورد من بلاد الأندلس وما خلفه هذا التنافس في هذا المجال^(١) الذي ما تزال آثاره قائمة حتى الآن^(٢) تشهد على حضارة وقت ذلك العصر وأحيطت ببعض مظاهره الاحيلة^(٣).

ومنذ قيام الدولة الحفصية، شارك سلاطين ووزراء الدولة الحفصية في انشاء نهضة عمرانية متقدمة، بل كان للوزراء دورًا وفضل لا ينكر في هذه النهضة. حيث نعم معظم الوزراء المتبدين بالتراث العريض والحياة المترفة والإسراف^(٤) وتنوعت المنشآت العمرانية ما بين مساجد ومدارس وزوايا وأربطة وحصون ومدن وغيرها.

بناء المساجد

اهتم الوزراء الحفصيون ووزرائهم ببناء المساجد الجديدة واهتموا أيضًا بترميم وتجديد المساجد والجوامع القديمة واصلاحها وتزويدها باحتياجاتها

(١) برنشفيك: المرجع السابق: ج٢، ص ٤٣٤ - ٤٣٥

(٢) المطوي: السلطنة: ص ١٥٨، الدولاتي: مدينة تونس: ص ١٤٩

(٣) الزركشي: المصدر السابق: ص ٢٥، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٨٠١

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ١٢، ص ٦٣٠، الزركشي: المصدر السابق: ص ٢٥، ابن القنفذ

حفاظاً على القيمة الفنية والتاريخية والدينية لهذه المساجد^(١) فكان الاهتمام ببناء المساجد موضوع اهتمام منذ نشأة الدولة الحفصية، حيث أمر السلطان أبو زكرياء الأول الحفصي وزرائه في عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣٠ م بالبدء في بناء جامع القصبة بتونس، قام بأمر وزرائه بترميم وتجديد القصبة، وأمر ببناء صومعته ترمية البناء والإنشاء^(٢) وانتهى من بناء المسجد الجامع سنة ٦٣٣ هـ وكان أول من أذن فيه عندما انتهى من بناء الصومعة في نفس عام الانتهاء من بناء المسجد الجامع^(٣) وكانت أعمدة هنا الجامع ورخامة الجميلة جليت من جامع منزل باشو بالوطن العيلي^(٤) ولم يكن أبو زكرياء الحفصي أول سلطان حفصي يهتم ببناء المساجد فقط فقد سبقه الأمير محمد بن عبد الواحد الحفصي ببناء مسجد جامع عام ٦٠٦ هـ عرف بمسجد القصية وزودوه بمئذنة مربعة الشكل ولا يزال المسجد قائماً حتي يومنا هذا ومعروف باسم جامع أبي محمد لشعيه الي محمد الحفصي^(٥) وأمر السلطان أبو زكرياء الأول ببناء المصلي خارج باب المنارة وجعل له أبراجاً وشرائف كأنه بلد صغير، وقدرت مساحة المصلي بمساحة مدينة بنزرت^(٦) وظل هذا الجامع موضع اهتمام جميع السلاطين

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ٢٦، ابن الشّاع: المصدر السابق، ص ٥٦، المطوي: السلطنة، ص ١٥٨.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ٢٦ ابن الشّاع: المصدر السابق، ص ٥٦، جوليان: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٩٨- ٥٧، wilfrid knapp, op cit,

(٣) الدولاتلي: المرجع السابق، ص ١٥٠

(٤) الزركشي: المصدر السابق: ص ٢٧٠: ٢٦٠

(٥) العمري: وصفة افريقية، ص ٢٢٧

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ٢٢٥، المطوي: السلطنة، ص ١٥٨

والوزراء من بعده حيث أمر السلطان المستنصر وزراره عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ببناء المنصورة بالجامع الأعظم^(١) كما أجري الحياة العذبة الى الجامع من أجل السقية والوضوء^(٢) وفي عهد السلطان المستنصر أمرت الأميرة عطف والده السلطان الوزراء ببناء جامع التوفيق أو جامع الهواء^(٣) فكان موضوع بناءه داخل الكتل السكانية للحاضرة التونسية^(٤).

واستمر السلاطين العظماء ووزراؤهم في عمليات بناء المساجد بتونس حيث نجد السلطان الواثق من المستنصر بأمر وزراره يبدأ عمليات الترميم والإصلاح للجامع الزيتونة، كم أمرهم بوضع أفضل كسوة لهذا الجامع وذلك يوم الخميس الخامس عشرة من شعبان عام ٧٧٦ هـ، وكان الوزير المستبد ابن الخير هو المشرف على عملية البناء لأنه هو المسيطر وصاحب الكلمة في عهد هذا السلطان الضعيف^(٥) كما ينسب له ولوزرائه بقاء مسجد باب الدرب^(٦) كما اهتم الواثق ووزرائه بالاهتمام بجميع مساجد الدولة الحفصية بعمليات التجديد والترميم لها وصيانتها^(٧) وعندما استولى الدقي ابن ابي محارب على الحكم لم يكن أقل اهتماماً ببناء المساجد عن غيره

(١) ابن الشعاع: المصدر السابق: ص ٦٤، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٧، ابن دينار: المصدر السابق الحويني ص ١٥٦

(٢) ابن ابي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٥، ابن الشعاع: المصدر السابق: ص ٦٨

(٣) ابن ابي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٥، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٨٠

(٤) الدولاتلي: المرجع السابق، ص ٤١

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ٤١، جوليان: تابع افريقيا الشمالية، ج ٢، ص ١٩٣

(٦) الجزائري: المرجع السابق، ص ٣٢٩

(٧) المصدر السابق، ص ٤٢

من السلاطين السابقين فأمر وزرائه ببناء جامع للخطبة^(١) وهو جامع باب البحر يعدن أمرهم يهدم الفندق الذي تباع فيه الخمر وبناء الجامع مكانه وذلك في ١٩ صفر عام ٦٨١هـ^(٢) في عهد السلطان أبي يحيى أبي بكر حيث أمر وزرائه بتجديد الكتابة التي بالأزورد في قبة جامع الزيتونة، فأصبحت أكثر جمالاً وروعة عن من ذي قبل، مما أضاف علي القبة عظمة وشماخة وروعة فنية^(٣).

أمر السلطان أبو زكرياء يحيى الواثق ووزرائه بالشروع في بناء جامع الزيتونة وغيره من المساجد^(٤) ومن مبدأ الاهتمام بالواقع أمر السلطان أبو العباس أحمد وزرائه بإقامة القراءة بالأسبوع بالمنصورة نمزي جامع الزيتونة وأوقف عليه وقفاً مؤبداً^(٥) وأمر السلطان أبو العباس أحمد ووزرائه ببناء علوة الكبير بزققة بن عبد السلام قبالة باب اليهود جوني الجامع الأعظم ليصوم به رمضان كل عام^(٦).

وهذا يتبين لنا مدي اهتمام السلاطين الحفصيين بالتحسينات العمرية للمساعد الحفصية سواء بالتجديد أو البناء أو الصيانة أو اضافة المكتبات للجوامع^(٧) فقام أبو زكرياء أبي اسمان ووزرائه بتوسيع جامع الخطبة بمدينة

(١) المصدر السابق، ص ٤٧، ابن دينار: المصدر السابق: ص ١٦٢

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٧

(٣) ابن وبتار: المؤش، ص ١٧٢، ابن الشاع: المصدر السابق، ص ١٠٦

(٤) ابن الشاع: المصدر السابق، ص ٧٤

(٥) المصدر السابق، ص ١١٠، ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٣

(٦) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٣

(٧) الزركشي: المصدر السابق، ص ٥١، العمري، وصف إفريقية، ص ٢٥، التجاني، الرحلة،

قسطنطينية واصلحه وحدوه مما جعله تحفة معمارية نشهد علي تفوق الحفصيين في المجال المعماري وقد اشترى الديار التي بجواره من أجل اتمام عملية توسيع هذا المسجد^(١) كما حدد السلطان أبو يحيى زكرياء اللحياني كبير الوزراء الأسبق أبواب جامع الزيتونة الداخلة وجعلها من الخشب الساج وذلك في رمضان عام ٧١٦هـ / ١٣١٦م^(٢) وكانت عمليات البناء والترميم تحت إشراف الوزراء والسلاطين فلا بد من وجود أحد الوزراء للإشراف علي عمليات البناء ونقل خطوات عملية البناء إلي السلطان الحفصي^(٣) واستمرت عمليات تشييد وتطور المساجد في الفترات الذهبية للدولة الحفصية وسلاطينها العظماء ووزرائهم، حيث أمر السلطان أبو عمرو عثمان ببناء ميضاء للوضوء بدرب عبد السلام بحوضي الجامع^(٤) وذلك في أوائل رجب عام ٨٥٤هـ، ١٧٠٢م^(٥) وأمر بتسخين الماء فيها في أيام الشتاء الباردة حتي يشجع الناس للذهاب إلي المساجد^(٦) كما أمر وزراءه بالإشراف علي ميناء مسجد بعيد الزميين بين باجة وتونس، وجامع أمر بالتباين من ربض السوق^(٧) وكذلك أمرهم ببناء مسجد للصلاة بزقته سيدي محرز بجوار

(١) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٤٨

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ٦٣،

(٣) المقرئ: نصح الطيب

(٤) ابن أبي الضياف: المصدر السابق: ص ٢٣٦، الزركشي: المصدر السابق: ص ١٤٤

(٥) الزركشي: المصدر السابق: ص ١٤٤

(٦) المصدر السابق، ص ٢٣٧، ٢٣٦، الزركشي: المصدر السابق: ص ١٤٤

(٧) ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٣٦ - ٢٣٧

المدرسة^١ أمر السلطان أبو عبد الله الحفصي وزرائه ببناء المقصورة بصحن الجنائز من جامع الزيتونة المعروفة بالعيدلية لسينة إلى كتيبتة^(٢) وهنا نجد أن الاهتمام بالمساجد يرجع معظمه إلى عصر السلاطين الأقوياء وزرائهم من حيث عمليات البناء والتجديد والتدريع والترميم والصيانة، وحرص السلاطين العظماء ووزرائهم على جعل هذه المساجد منارة للعلم والثقافة وجعلها أفضل طراز معماري تشهد بلاد المغرب على العكس من فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين حيث وجهت الاهتمامات إلى الصراعات والقضاء على الفتن والثورات وأهملت المساجد ولم تذكر المصادر سوى الإهمال للعمران، ولم تذكر أنه في فترات الوزراء المستبدين قد تم بناء مسجد أو توسيعه إلا قليل جداً، فكانت معظم فترات الضعف إهمالاً وتدميرًا وتهدم للحياة العمرانية بالمساجد حتى شكت المساجد لهذا الإهمال، ولم يكن ذلك في البلاد الحفصية فقط بل كان أيضًا.

(١) المصدر السابق ص ٢٣٦، ابن الشماخ: المصدر السابق: ص ١٢٢

(٢) ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٤١

الوزراء وتحصين المدن

الأسوار

كانت للحروب والصراعات للاستيلاء على الحكم في فترات الضعف دور هام لإقامة الأسوار حول تونس وضواحيها، مما جعل السلاطين ووزرائهم يسعون لإقامة أسوار حول الأرباض، عندما أمر السلطان أبو عبد الله محمد أبي ضربة وزراءه بحث الناس ببناء جدران قوية على الأرباض من أجل حمايتهم ضد أى عدو خارجي، وبالفعل بدء التنفيذ لبناء تلك الجدران^(١) ولكن لم يسعفه هو ووزرائه الوقت لإتمام البناء كله حتى جاء السلطان أبو الحسن المرينى وأحتل تونس بكل سهولة عام ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م^(٢) فأمر وزراءه بإعادة بناء الأسوار وإحاطة المدينة بخندق وأكمل الجدران التى بدأها من قبله السلطان الحفصى أبو ضربة ووزرائه وبالفعل كانت التحصينات وأسوار أبي الحسن المرينى قوية وحصينة ومنيعة ولم تغلح محاولات الوزير ابن تافراجين والأعراب باقتحامها، وأصبحت المدينة بأسوارها وخنادقها وقصبتها قادرة على الثبات والتصدي للعدو^(٣).

وأمر السلطان أبو اسحاق وزراءه ببناء سور بأرباض تونس ولكنه لم يكتمل^(٤) ولم يكن للوزراء المستفيدين بالسلطة دور اقل من السلاطين

(١) الزركشى: المصدر السابق ص٦٦، ابن خلدون: العبر، ٦، ج١١، ص٧٥١

(٢) مارمول كربخال: افريقيا، ج٣، ص٧٥، عبد العزيز الدولاتلى: مدينة تونس العهد الحفصى، ص٦٢

(٣) ابن خلدون: العبر، ص٧ ج١٣، ص٥٧٢، الزركشى: المصدر السابق ص٨٥

(٤) ابن ابى الضياف: المصدر السابق ' ص٢٢٧

الحفصيين فنجد الوزير ابن تافراجين عندما سيطر واستبد بالسلطة الحفصية تولى بنفسه تدعيم أسوار الأرباض، وبذل مجهودًا كبيرًا في سبيل صيانة المنشآت الحربية التونسية وحبس عليها مداخيل الخراج ومحاصيل إيجار معاصر الزيت الموجودة في الأرباض^(١) وأمر السلطان أبو فارس عبد العزيز وزراره بتحسين السواحل الشمالية والشرقية، إذا جُهرزت بعدة تحصينات تهدف إلى تعزيز بعض النقاط الدفاعية كرأس آدار والحمامات وأبى الجعد ورغراف وغيرها من المناطق الدفاعية^(٢). وأمر وزراره أيضًا بعمل نفس التحصينات في ضواحي تونس من أجل حماية العاصمة من أى هجومات مسيحية^(٣) محتملة كما زودت بأبراج للمراقبة بقرطاج كما قاموا ببناء أبراج مراقبة على شواطئ الخليج منها برج سيدى أبى سعيد لمتابعة تحركات السفن، كما كان هناك دوريات بحرية لمراقبة كل من يقترب من الشواطئ التونسية وكان السلطان أبو العباس أحمد سابقًا لأبى عمرو عثمان وأبى فارس عبد العزيز في بناء الأبراج حيث أمر وزرائه ببناء البرج الذى يقع هو شرقى قرطاجنة للاحتراس من الأعداء الخارجين على لدولة وكذلك القوى المسيحية المجاورة، ورفع التضييف عن قراها عندما يذهب السلطان لهذا المكان^(٤) كما أمر أبو عمرو عثمان وزراره بإنشاء رباطًا من أجل الوافدين،

(١) ابن خلدون: العبر ج٦، ص ١٢، ص ٨٣٧، ابن دينار: المصدر السابق ص ١٧١، ابن

الشماع: المصدر السابق ص ١٠٢، ابن الخطيب: رقم المحلل ص ٦٩، ٦٧

(٢) الزركشى: المصدر السابق: ص ١١٦

(٣) الدولاتلى: مدينة تونس: ص ١٠٦

(٤) ابن دينار: المصدر السابق ص ٧٣. ابن أبى الصيف: المصدر السابق ص ٢٣١،

الزركشى: المصدر السابق: ص ١٠٧

وكانت بها حارسه وكذلك تعمير دار للضيوف، ولكن كان هدفها الأساسي الدفاع وال عمران البشري^(١) فانتشرت الأبواب بتونس وكذلك الأرباض التي تطورت في الدولة الحفصية، وأصبحت مأهولة بالسكان حتى أصبحت متلاصقة^(٢).

وبلغت الكثافة السكانية والعمرانية زُروتها في العهد الحفصي أبان فترات الازدهار على يد السلاطين العظماء، وشملت معظم أراضي المدينة وأرباضها التي مثلت مجموعات عمرانية ملتحمة التحاماً عضوياً موزعة على هيئة أجنحة تحيط بها الأسوار، وبلغت قمة جمالها العمراني^(٣).

وأرسل السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز حملة كبيرة بقياده وزير الجيش إلى جزيرة جربة عام ٨٤٦هـ / ١٤٢٢م وعلى أثر هذه الحملة أمر وزرائه بتشديد الحصون الحربية في رأس آدار، ورفراف، والحمامات من أجل رد هجمات الاعتداءات الخارجية^(٤) واهتم السلاطين الحفصيون وزراؤهم بأسوار مدينة عنابة وقاموا بترميمها حتى انتعشت هذه المدينة في فترات قوة الدولة^(٥) واهتم السلاطين الحفصيون وزراؤهم بإقامة الأسوار، والجدارية حول القرى الحفصية خوفاً من هجمات البدو والنصارى، وكانت أسوار القرى أقل صلابة من أسوار المدن.

(١) أن دينار: المصدر السابق ص ١٧٨

(٢) الدولاتلى: مدينة تونس، ص ١١٦

(٣) العبدري: رحلة

(٤) يوسف فهمى الجزائرى: ارض البطولة ص ٣٣٣

(٥) العبدري: الرحلة، ص ٢١

ولكن كان للحروب والصراعات على الحكم إبان فترات نفوذ الوزراء دور هام على أسوار المدينة وأرباضتها حيث تهدمت وتخربت أثناء الحصار الخانق للمدينة ومع الأزمات والضغط السياسية، تأثرت لكن الأسوار والأرباض الموجودة في جميع البلاد الحفصية، حيث تهدمت أسوار بجاية، وأسوار عنابة وأسوار تبسة، وأسوار سوسة وأسوار القيروان وأسوار المهديّة وأسوار قسطنطينية تهدمت من آثار الحروب والصراعات أيضا^(١) ولهذا أيضا سور قابس الجميل رائع الفن المعماري، وتخربت وتهدمت أسوار مدينة ليرة وتعدمت بسبب الحروب المستمرة وضعف السلاطين بعد أبي عمرو عثمان، وكذلك تهدمت أسوار طرابلس^(٢).

عمارة المدن

حرص السلاطين الحفصيون العظماء على عمارة المدن الحفصية لذلك خضع النشاط المعماري لهذه المدن إلى النشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي، حيث تشكل ظروف التطور العمراني والعوامل الدافعة لذلك التطور ويعتبر السلطان أبو زكرياء الحفصي من السلاطين العظماء الذين تركوا لنا أعمالاً فنية تدل على عظمة أصحابها وقد أمر وزراءه بإنشاء عدة مؤسسات وتجهيزات سياسية ودفاعية ودينية واقتصادية تهدف إلى دعم نفوذ دولته^(٣) فقاموا ببناء الجوامع وبنو مصلى العيدين والمدرسة الشماعية وسوق العطارين

(١) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٩٣

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ص ٤٧٣، ٤٦٩، ٤٦٥

(٣) الدولاتلي: مدينة تونس في العهد الحفصي، ص ١٣٧

وحصن تونس وجدد رسوم القصية^(١) وبنو سوق القماش وأنشأوا أسواق جديدة حول جامع الزيتونة، وأمر وزرائه ببناء مصلى قرب الركاض وأنشأوا في الرض الجنوبي وكان محصناً بالأبراج والشرفات^(٢).

وبلغ الفن المعماري والمنشآت المعمارية ذروتها في عصر السلطان المستنصر بالله ووزرائه، حيث بلغ صيته بفضل ما أنجزه هو ووزرائه من البناءات الضخمة المعبرة عن عظمة الملك ووزرائه بالنفع^(٣).

وأشهر ما نفذه وزرائه جنازة أبي فهر برأس الطابية، وهي عبارة عن متزه كبير في رأس الطابية على مقربة من مدينة تونس، وجعل فيها جميع أشجار الفاكهة من التين، والزيتون، والرمان والنخيل والأعنان، وسائر الفاكهة وأصناف الشجر، وكذلك السدر والطلع والشجر البري واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحوائر، وشجر القور واليم والنارنج والسرور والريحان والياسمين وغيرها، وجعل وسط هذه الرياض روضة عظيمة وأمر وزرائه ببناء بحيرة كبيرة جلب إليها الماء من الحنايا القديمة التي تجلب الماء من زغوان إلى قرطاجة بعد أن بنوها حنايا جديدة وراء باب سعدون وقرب رأس الطابية، وبلغت ذروة الفن في عملية جلب المياه فوراً في البحيرة بهندسة معمارية فنية عجيبة، فتضرب أمواج هذا الصهريج الكبير فيصبح مثل البحر ونظراً لعمق الماء حتى حافات البحيرة، وبنيت بطرفي البحيرة قبتان متقابلتان على أعمدة من المرمر شيدت جوانبها بالرخام المنجد،

(١) ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ٥٦- ٥٧.

(٢) الدولاتى: المرجع السابق، ص ١٣٧- ١٣٨.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٦٣- ٣١، ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٥٨، ابن الشماخ: المصدر السابق ص ٦٧- ٨، ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٥.

ورفعت سقوفها الخشبية على أبنية محكمة واشكال منمقة إلى آخر ما اشتملت عليه تلك الرياض من القصور والمقاصير والحوائر غرفاً من فوقها غرف تجرى الأنهار من تحتها^(١).

كما أمر وزراءه بتشيد المصانع بتونس الحفصية من أجل تدعيم الحرف والصناعات بالبلاد الحفصية والاهتمام بها^(٢) وقد كلفت هذه الإنشاءات الكثير من القوى البشرية والمال من أجل إتمام هذه الأعمال في البحر وأقام الوزراء وأعيان المدينة وأصحاب الجاه بناء قصورهم ومنتزهاتهم حول بستان أبي فهر^(٣) وتفننوا في إقامة وتشيد القصور الجميلة المشتملة على الارباض والبساتين الواسعة^(٤).

ومع مراحل الضعف والانهيار واستبداد الوزراء وضعف السلاطين، وانتشار الفن والثورات في كل مكان والصراع على الحكم بين الأمراء، تأثرت العمارة الحفصية وبدأت في الانهيار لأن الوزراء كان شغلهم الشاغل هو جمع الأموال واكتناز الذهب والثروات الطائلة.

فكان الوزير الغافقي على الرغم من حبه إلى اقتناء الذخائر ومحباً لأفخر

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٦٣٠ - ٦٣١، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٧ - ١٢٨، عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس في العهد الحفصي ص ١٣٨.

(٢) ابن دينار: المصدر السابق، ص ٢٢٠ - ٢١.

(٣) ابن خلدون: العبر ج٦، ج١٢، ص ٦٢٩ - ٦٣٠، عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس في العهد الحفصي، ص ١٣٩.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ج١٢ ص ٦٣١، ٦٣٠، ٦٢٩، الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٤، ٣٣، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٧، القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٥، ص ١٤٧.

الملابس، قام ببناء القصور الضخمة الخاصة به^(١) ومع استمرار ضعف السلاطين وخلودهم إلى الراحة والملذات^(٢) وعاشت الأعراب في البلاد واستولوا على القرى والمنازل في عهد السلطان أبى إسحاق ودمروا ما شيده وزراء السلاطين العظماء السابقون فنون العمارة^(٣) وقلت الاعمال الانشائية والعمرانية في جميع البلاد الحفصية^(٤) ومع صعود الدولة إلى الازدهار والتقدم والقوة في طورها الثالث القوى انعكست تلك الحالة من الأمن والاستقرار الى ازدهار حركة البناء والتشييد والعمران وفي عام ٧٣٥ هـ أمر السلطان ابوبكر ووزرائه ببناء البرج الجديد يرأس الطابية، وبلغت النفقة فيه خمسين ألف دينار^(٥) وبعد نهاية مرحلة الازدهار دخلت البلاد في انهيار شديد وبدأت حالة الانحطاط وتدمير كامل للمدن والقرى حيث لجأ السلاطين إلى اللهو والملذات وبناء قصور خاصة بهم من أجل قضاء تلك الملذات^(٦).

واستعمل الحفصيون المرمر بأسهاب في بناء القصور والمنازل، وكان يستعمل لتأطير المداخل وتبليط الصحن، وهندمة الأعمدة والتيجان، وكسوة بعض الأجزاء من الجدران، وكانت المنازل صغيرة ولكنها نظيفة، ومنعشة وفخمة وهى مفروشة بالمرمر الأبيض والأسود، واستعمل

(١) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٥، الزراكشى: المصدر السابق ص ٤٢، ابن الشماخ: المصدر السابق: ص ٧٥

(٢) ابن الشماخ: المصدر السابق: ص ٧٤، المطوى: السلطنة، ص ١٣٩

(٣) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٩

(٤) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ص ٣٠

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص ٧١، الدولاتكى: تاريخ تونس في العهد الحفصى ص ١٣٩

(٦) برنشفيك: المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٠، المطوى: السلطنة، ص ٦٤٧ ٦٤٨

الوزراء في بناء ميضاه السلطان والعماير الخاصة بهم وكبار رجال الدولة المنقوشة بالمرمر الأبيض والأسود، واستغلت هذه الصناعة على مدى واسع في كل أصناف العماير وكذلك استعملوا في بناء مساكن تونس الحجر والآجر^(١).

وكانت بيوت الوزراء مساعدهم تفرش بالرخام، حيث كثر الرخام بتونس، وأكثر أبواب الديار معمول بها كعضائد وعتب^(٢) تصنع من الرخام^(٣).

واستعملت مواد بناء أخرى وبكثرة في بناء المنازل الحفصية بالحجارة المنحوتة جيداً، ومسقوفها مزدانة كثيراً بالفسيفساء وبالجص المجزع، مع فن رائع، ومزونة باللون الأزرق وبألوان زاهية أخرى، ويعود هذا إلى أن ألواح الخشب واخشاب النجارة نادرة للغاية، فكانوا يستخدمون الخشب المتوفر محلياً^(٤) ثم استعملوا الطوب في بناءات الحدائق^(٥) وأمر السلاطين الحفصيون العظماء ببناء المنشآت والتحصينات الحربية كالأسوار والقصبات من هذا الطوب لأنه طوب مقوى بكمية وافرة من الجير، وله مقاومة شديدة^(٦).

(١) عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس في العهد الحفصي، ص ٢٠٧، برنشفيك: المرجع السابق

ج ١ ص ٢٨٠، المطوى: السلطنة، ص ٦٤٧ - ٤٨

(٢) العمرى: وصف إفريقية، ص ١٩٧، الوزان: وصف إفريقية ص ٤٤٩

(٣) العبدري: الرحلة، ص ٤٠، اسماعيل العربى: المدن المغربية، ص ٢٢٠

(٤) الوزان: المصدر السابق، ص ٤٤٩

(٥) ابن خلدون: العبر ج ٦، ج ١٢ ص ٦٣٣، الدولاتي: مدينة تونس، ص ٢٠٧

(٦) ابن خلدون: العبر ج ٦، ج ١٢ ص ٦٣٣، الدولاتكى: مدينة تونس، ص ٢٠٨

وعمل السلاطين الحفصيون على إعمار المدن الحفصية وتوفير الماء لجميع السكان من أجل استمرار الماء وتوفيره داخل المدن، أمر السلطان المستنصر الحفصي وزراءه ببناء الساقية شرقى جامع الزيتونة عام ٦٥٠ هـ^(١) واستمر توفير المياه داخل المدن مستمرا في عهد السلاطين العظماء فأمر السلطان أبو عمرو عثمان وزراءه ببناء الأسبلة، فقاموا ببناء سقاية وجعلوها قريبة من الأسواق^(٢) من أجل أن يكون الماء مستمرا للناس وكان هذا العمل من أعظم انجازات وزراءه وعصره^(٣) كما أمر وزراءه ببناء مجمع لماء المطر من أجل توفير المياه طول العام^(٤) وأمر السلطان أبو عبد الله الحفصي وزراءه بإنشاء أسلة من أجل توفير المياه لسكان المدن الحفصية^(٥).

وأمر السلطان وزراءه ببناء السقاية التى يبطحاء الشيخ مردوم داخل باب قرطاجنه وأوقف عليه^(٦) وكذلك أمر السلطان أبو عبد الله محمد المنتصر ببناء سقاية الماء وأوقف عليها^(٧).

كما حرص السلاطين الحفصيون وزرائهم على إنشاء الحمامات الحفصية

(١) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٣، ابن الشعاع: المصدر السابق، ص ٦٦، ابن

الضياف: المصدر السابق ٢٠٥

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ١٥٨

(٣) ابن الشعاع: المصدر السابق ص ١٢٢، ابن الضياف: المصدر السابق، ص ٢٣٦

(٤) ابن ابى الضياف: المصدر السابق، ص ٢٣٩

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٤١

(٦) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٧٣

(٧) ابن الشعاع: المصدر السابق، ص ١٢٠.

الكبرى^(١). وأمر السلاطين الأقوياء وزراءهم ببناء الجنان والحدائق وتزيين المدن الحفصية وهذا ما أمر به السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي، فبلغت مدينة تونس قمة جمالها العمراني في عهده^(٢) ثم اهتموا بعماره وعمران مدينة سطيف^(٣) وميلة^(٤) حيث توجد بها قبائل بنى ثابت الذين ساهموا مساهمة فعالة في قيام الدولة الحفصية وقدموا لهم يد المساعدة وأمر السلطان أبو العباس أحمد وزراءه بالاهتمام بسكان هذه الجبال ووفروا لهم موظفين من قبل السلطة الحاكمة للإشراف عليهم ورعايتهم^(٥).

كما أمر السلطان الحفصي أبو زكرياء وزراءه ببناء منازل مدينة ورقلان، بعد أن دمرها ابن غايته بتحافها وكمالها ماعدا الجامع الكبير بها، وظلت موضع اهتمام السلاطين العظماء ووزرائهم حيث قام السلطان أبو عمرو عثمان بزيارتها صحبة وزرائه، وعين عليها والياً من رجاله المخلصين لإدارة شئون

(١) الوتشرس: المعيار ج، ص ١٤٢، ١٤٩، ٢٢٢ الحسن الوزان: وصف أفريقيا ص ٤٢٥

برنشفيك: المرجع السابق، ج ١ ص ٣٢٣، اسماعيل العربي: المدن المغربية، ص ٢٤٤
نجيب زيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تقديم أحمد بن سوده، دار الأمير، لبنان، ١٩٩٥، ط ١، ج ٣، ص ١٤٧.

(٢) ابن الشماخ: المصدر السابق ص ١٢٨

(٣) سطيف: تقع على مسافة ستين ميلاً من جنوب بجاية بعد اجتياز كل الجبال في سهل جميل جداً ومحاطة بأسوار مشيدة بحجارة بدیعة وكثيرة منحوتة وذات شكل رائع الوزان: وصف أفريقيا ص ٤٢٤

(٤) ميلة: مدينة قديمة تقع على مسافة اثنين وثلاثين ميلاً من قسيطة، وهي محاطة بأسوار وتحوى ثلاثة آلاف اسرة رابع الوزان: وصف أفريقيا ص ٤٣١- ٤٣٢

(٥) ابن خلدون: العبر ج ٦، ج ١٢، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٣١٩

هذه المدينة^(١) وأثناء هذه الحملة توفي الوزير الأكبر شيخ الموحدين أبو عبد الله محمد بن هلال يحمل إلى حضرة تونس فدفن بدار الشيخ سيدي محرز بن خلف^(٢) كم اهتم السلطان أبو زكرياء بأعمار مدينة قابس فأمر وزرائه ببناء وجمع المنشآت العمرانية بها^(٣).

وأمر السلاطين الحفصيون العظماء وزرائهم أنشاء الرياض والبساتين التي كانت بمثابة أرض لاختيار هذه المغروسات والمزروعات المختلفة بالإضافة إلى المنشآت المائية المتطورة، والانجازات المعمارية والهندسية التي تشهد على عظمة أولئك الوزراء وسلاطينهم العظام^(٤) حيث نجد أثناء فترات السلاطين العظماء ووزرائهم انتشرت البساتين في جميع المدن الحفصية، فكثر السواقي والبساتين في مدينة بجاية^(٥) وأمر السلاطين وزرائهم بإنشاء البساتين والجنات قرب أسوار تونس خاصة بالضاحية الغربية من باب سعدون إلى رأس الطابية، وباردو، ومنوبة، وقريانة وقرطاجنة وأريانة حيث الحدائق المليئة ذات الثمار والفواكه والخضر، وزودت هذه الرياض ببئر وناعورة يحركها حيوان لسقى المزروعات وأبراج للسكن^(٦) وبسبب انتشار الأمن والأمان في عهد الوزراء المخلصين لسلاطينهم العظماء من الناس،

(١) الزركشي: المصدر السابق ص ١٥٢، ١٥٣

(٢) الزركشي: المصدر السابق ص ١٥٢

(٣) التجاني: الرحلة، ص ١١٩

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٧، ١٢٨، ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ٦٤، ٦٨.

(٥) الوزان: وصف افريقيا، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٧٢

(٦) الوزان: وصف افريقيا، مارمول: افريقيا، ج ٣، ص ٢١، ٢٣

أنشأوا البساتين والعمران وكثرت المغراسات، وزاد عدد الصناع وأصحاب المعارف وأرباب البصر مثلما حدث في عهد السلطان أبي زكرياء الحفصي ووزراءه^(١).

واستمرت حركة إنشاء الرياض وازدهارها في عهد السلطان المستنصر الحفصي ولكنها كانت أقل في عهد الواثق بسبب كثرة الحروب والاضطرابات السياسية والاجتماعية وتحكم الوزراء في أمور الحكم، فقلت حركة العمران والبناء، وبدأت تنتعش قليلاً في عهد السلطان أبي عصيدة ووزرائه عندما تولى الحكم ٧٠٩/٦٩٤ هـ فأمر وزراءه ببناء الرياض والأبراج وغرسوا الزروع والغراسات ولقت عمليات إنشاء البساتين اهتماماً كبيراً^(٢). ومع تدهور الأوضاع وازدياد حدة الأزمات السياسية في أطوار الضعف والانحلال وسيطرة واستبداد الوزراء وتدهور العمران وخربت البلاد وقطعت البساتين والمغراسات^(٣).

ومع ظهور السلطان العظيم أبي فارس عبد العزيز ومن بعده أبي عمرو وعثمان ووزرائهما والذين أمروا ببناء البساتين في باردو والاميرية وانتشرت باعداد كبيرة في البلاد الحفصية حيث زرعت بها المزروعات المختلفة من برتقال وليمون وورد وغيرها من الازهار الجميلة، وبنى الوزراء لسلطينهم

(١) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٢

(٢) ابن القنفذ: الفارسية: ص ١٣٦، ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٤١، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٧٥١.

(٣) دائرة المعارف التونسية: الكراسات ٠ بيت الحكمة، قرطاج - تونس، عدد ٤، ١٩٩٤، ص ١٠٧.

ولهم قصورًا عظيمة الهيبة والبهجة بمختلف النحوت والرسومات الفنية الجميلة^(١).

كما أمر السلطان أبو عمرو وعثمان وزراءه بغرس الجنات الكثيرة حول زاوية سيحوم، وغمرت عمارة قوية وازدهرت بفضل مساندة ونشاط وزرائه في عمليات نشر العمران، وأمرهم بإكمال الساقية المسماة بالمنصورة قرب برج الصخرة جوفى جبل الفتح، حيث على ما يبدو كان السلطان يقضى فصل الصيف ومعه وزرائه بالجنات الموجودة بضاحية المرسى^(٢).

ولم يكن اهتمام السلاطين الحفصيين ووزرائهم بإنشاء الابراج أقل من اهتمامهم بالجنات والرياض والاسوار والابراج نوعان في العهد الحفصي، أبراج سكن محصن أو أبراج تدعم الحصن أو السور وانتشرت الابراج المقترنة بالسكن الضحوى المحصن^(٣) في فترات قوة الدولة فسكنها المزارعون الذين يقيمون بزراعة الاراضى المجاورة لهم^(٤).

وانتشرت الابراج بناحية مدينة تونس بناءً على اوامر السلاطين الاقوياء لوزرائهم على امتداد مساحة تتراوح من ستة إلى عشرة كيلو متر حيث اهتموا برأس الطايبة وباردو، ورياض السناجره ومثوية واريانة والمنشية وغيرها. وذلك لقرب الأبراج من المدينة وأصبحت مرتبطة بالسكن المحصن^(٥) كما

(٢) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٧٥.

(٢) ابن الشعاع: المصدر السابق، ص ١٢٨، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٣) البرزلي، فتاوي، ج٢، ص ١٧٧.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٧٠.

(٥) المالكي: رياض النفوس، ج١، ص ٤٢٣.

اهتم السلاطين الحفصيون ووزراؤهم بحركة تعميرية للأرض المتمثلة في تشييد الأبراج والرياض الخاصة بهم في فترات السلم والأمن، وظلت تحمل الطابع الدفاعي عن المدينة أثناء الأزمات والحروب^(١). وشهدت فترة حكم السلطان أبي عصيدة ووزرائه ثورة عمرانية في بناء الأبراج^(٢). كما أمر السلاطين الحفصيون ووزراءهم بإنشاء الحصون التي تحمل بين طياتها الصبغة العسكرية ليقوم بدور الحامي للمنطقة مثل حصن مسلمي وأجا^(٣) وارتبط إنشاء الحصن ببناء المنازل، وإعادة تعميرها ومع إنشاء الحصن انتشرت من حوله المنازل والعمارة بجميع المنطقة المحيطة من حوله، ثم تحول الحصن إلى مركزاً ومخزناً للمؤنة^(٤). وفي فترات قوة الدولة الحفصية أمر السلاطين العظماء ووزراءهم ببناء الأسواق والفنادق في كثير من القرى وهي: رقة أم الأصابع، ومستية، وعثمان ومرجانة ومسكيانة^(٥) وكذلك بناء المنشآت والمتاجر والمنشآت المائية^(٦) ولكن في فترات الضعف وسيطرة الوزراء واستبدادهم انقرضت الضيعات الكبرى^(٧) وأثرت الحروب على المدن فأصابها التدمير

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٧٠.

(٢) ابن القنفذ: الفارسية، ص ٨١

(٣) التجاني: الرحلة، ص ١٠٧، محمد حسن: المدينة والبادية، المدينة والبادية، ج١، ص ٦٨

(٤) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٢٣٢- ٢٣٣.

p.courbin, Metho dologie des faurilles devillages dis parus en france in Aesc, ١٩٦٥. PP. ٢١٩-٢٥٦.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج١، ص ١٤٢- ١٤٩، محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٦٢

(٦) الونشريسي: المعيار، ج١، ص ١٤٢، ١٤٩

(٧) المالكي: رياض النفوس، ج١ ص ١٥٩، حسن عبد الوهاب ورققات ج١ ص ٣٢٧،

والخراب بالإضافة إلى الأزمات الطبيعية^(١) نتيجة للانحلال والصراع على الحكم استمرت عمليات الهدم والاهمال، تهدمت الحصون والاربطة والاسوار، واصابت هذه الابنية الاهمال الشديد^(٢) وهجرت المدن من سكانها وهجرت المدن من سكانها، فنجد أن مدينة طبلبة أصبحت خالية من السكان وفقدت أهميتها الاقتصادية بعد ركود وتدهور النشاط الاقتصادي الكبير الذي كان بها بسبب الحروب المستمرة وغارات العرب القاسية التي خربت اليباس والاخضر في ظل غياب ونوم عميق من السلطة الحفصية الضعيفة ووزير مستبد^(٣) وتخربت مدينة الأريس عدة مرات واعيد تعميرها على أيدي السلاطين العظماء ووزراؤهم^(٤) وكذلك تعرضت مدينة صفاقس الى التهديم وقل عدد المنشآت العمرانية بها وهجرها سكانها بسبب ابتزاز العرب لهم.

وهنا خربت قرى وعمرانها بسبب بطش وتعدى الاعراب والحروب الداخلية والابوئة والكوارث البشرية والطبيعية، فهجرها السكان وتحولت الى خراب^(٥) وقام السلاطين الحفصيون ووزراؤهم بهدم أسوار وحصون القرى والمدن بسبب استيلاء العدو عليها واخذها كقاعدة حربية، ويتحصن بها ضد

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص٦٨

(٢) مرمول كربخال، افريقيا، ج٣، ص٦٩

(٣) المصدر السابق، ج١٣ ص١٦

(٤) الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٦، محمود إسماعيل: سسيولوجيا، ج٣، ص١٠٥، ٦١٥

(٥) البرزلي: فتاوى، ج٢، ص٢١٦، محمد حسن: المدينة والبادية، ج١ ص١٩

الجيش الحفصى^(١) وتخربت مدينة القيروان على أيدي العرب في فترات ضعف الدولة الحفصية وسيطرة الوزراء على الحكم^(٢) واستمرت الازمات في القرن الثامن الهجرى تلقى بآثارها المدمرة على العمران والعمارة الحفصية التي تأثرت بشدة بسبب تلك الازمات^(٣).

ومع زيادة الاضطرابات السياسية والاجتماعية والتعدى على القرى والمدن اندثرت الأسواق وقلة العمليات التجارية، واختفت المنازل والمدن^(٤) وشمل التدهور العمرانى كافة المجال الزراعى الممتد من القيروان إلى سوسة، فأصبح قفراً ينزله البدو بخيلهم وبماشيتهم، وتحولت قرى كثيرة إلى ركام من الأطلال والمنازل المهجورة مثل قلشانة ونمس وزرود والمنصورية وصيرة ورقادة والأصنام وطنباس^(٥) وأمام عجز السلاطين الضعاف الوزراء المستبدين الذين عجزوا عن حماية الناس أثناء الازمات الطبيعية من طاعون وغيره، وعدم القدرة على توفير المسكن البديل نجد الكثير من المدن قد خلت على عروشها من سكانها^(٦) مثل بلدة أولاد عيد العالى، حيث خربت وتدمرت زراعتها وتدمرت مدينة أجرة نتيجة الحروب المتواصلة بين محمد بن عبد الواحد الحفصى وبنى غانية تلك الحرب التى ادت الى تهدم الكثير من

(١) الوزان: وصف افريقيا ص ٤٩٤

(٢) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١ ص ٦٥

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١ ص ٦٦-٦٧

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١ ص ٦٦-٦٧

Sloganac:les In stallations Hydrun liques p.٢١٢، ٥١١٧

(٥) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١ ص ٢١٩

(٦) ابن ناجى: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٧

المباني والمنشآت الموحدة والحفصية وتدمير الزروع والمحاصيل^(١).

وكان للصراع المستمر بين دول المغرب دوره الهام في تدمير المنطقة وعمرانها^(٢) سواء في الدولة الحفصية والزيرية والمرينية، فكانت للحرب بين المريني أثناء حملات السلطان أبي الحسن المريني على تونس، حيث كانت للحروب بين وزير أبي الحسن المريني وهو الوزير هو العسري^(٣)، والسلطان الحفصي أبي حفص عمرو ووزرائه حيث دمرت الزروع في أحواز تونس في ارض الحامة وقبض على السلطان الحفصي وقتل^(٤) وأرسلت رؤوسهم إلى السلطان أبي الحسن المريني في ١٧ من جماد الأولى عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م^(٥) وكانت حروب الأعراب ضد أبي الحسن والوزير الحفصي ابن تافراجين مدمره تلك معالم العمران في القيروان عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م حيث دمرت الزروع تمامًا في القيروان والمناطق المحيطة بها^(٦).

(١) أجز: هي مدينة بها الكثير من الحجارة تقع بين القيروان وجلولاء، حركة الرياح والعواصف وبها قبائل بربرية ويوجد بها قنطرة لاح البكري: المغرب، ص ٥٤.

(٢) البكري: المغرب، ص ٥٤ ج ١٥، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١ ص ٢٢٣

(٣) محمود اسماعيل: سوسيو لوجيا، ج ٣، ص ٨٦

(٤) السلاوي: الاستقصا ج ٣ ص ١٥٥، الزركشي: المصدر السابق، ص ٨٣، ابن مرزوق المسند، ص ٣٦٥، ابن القنفذ: الفارسية، ج ١٧، ابن الأحمر: روضة النسر، ص ٦ الزركشي: المصدر السابق، ص ١٦٦، السلاوي: الاستقصا، ج ٣، ص ١٥٥ جوليان: تاريخ أفريقيا الشالية، ص ١٨٤، برنشفيك: المرجع السابق ج ٢، ص ٩٧

(٥) الزركشي: المصدر السابق ص ١٦١، ابن القنفذ: الفارسية ص ١٧٠

(٦) ابن خلدون: العبر، ج ١٢، ص ٦، السلاوي: الاستقصا، ج ٣، ص ١٥٩، الانصاري: فهرست الرصاع، ص ٣ هامش، الكفيف: الملعين ص ١٨ - ٢٠، مقديش: المصدر السابق، ج ١،

وكان للوزير الحفصي ابن تافرجين دور هام في تدمير أسوار تونس وأبراجها عندما انضم الى العرب وأشياح الحفصيين والعامة وحاصروا القنصلية بتونس ونصبوا عليها المجانيق، ودارت الحرب بين الطرفين فتوقفت الحياة العمرانية وتهدمت إبان تلك الفترة التي ضعفت فيها السلطة الحفصية وسيطر الوزراء بقيادة ابن تافراجين على مقاليد الحكم^(١).

وكذلك عانت قسطنطينة من التدمير والخراب أثناء حصار السلطان أبي عنان لها فكان يغادها ويرادها الحصار أكثر من مرة من أجل إسقاطها حتى توفي السلطان أبو عنان المريني فقام الوزير عبدالله بحرق مجانيق الحصار^(٢) وكذلك لاقت بيجاية من الدمار والخراب أثناء الحملات المرينية عليه، فتهدمت أسوارها ورباضها^(٣).

كما قام الوزراء الحفصيون أثناء حروبهم مع بنى عبدالواد بتدمير حصن تمرز دكت بالقرب من بجاية الذي بناه السلاطين الزيانيين أثناء هجومهم على

ص ٥٧٨، ابن دينار: المؤنس، ص ١٦٩، يحيى بن خلدون: بقية الرواد، ج ١، ص ٢٣٥، ابن راضوان: الشهب اللامعة، ص ١٥، محمد القار: تاريخ الايدي الجزائرى ص ٨٩، المطوى: السلطة، ص ٨٩، الحريرى: تاريخ المغرب الاسلامى ص ١٢

(١) يحيى بن خلدون: بقية الرواد، ج ١، ص ٢٣٦، الزركشى: المصدر السابق، ص ٨٤، ٨٥، السلاوى الاستقصا، ج ٣، ص ١٦١-١٦٢، ابن الاخوان: المصدر السابق، مصطفى أبو ضيف: اثر العرب في تاريخ المغرب، ص ١٨٢، الغنيمى: موسوعة المغرب، ج ٥ ص ٢٦٠

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ١٣٩، الجبلى: تاريخ الجزائر، ص ٧٨٢

(٣) السلاوى: الاستقصا، ج ٣، ص ١٨٥، محمد الكراسى: عروس المسائل ص ١٢ الزركشى: المصدر السابق، ص ٩٤ برتشفيك: المرجع السابق، ج ١ ص ٢٠٧، حوليات: تاريخ افريقيا الشمالية، ج ٢ ص ٢٧

بجاية في النصف الاول من القرن الرابع عشر^(١) وكذلك تهدمت أسوار مدينة عنابة في نهاية العصر الحفصي وقل عدد سكانها ولكن كانت قلعتها شاهجة لحصانتها وقوة بنائها^(٢) وفي عام ١٣٣٢ م قام السلطان أبو يحيى أبو بكر ووزرائه باسترجاع المسيلة من يدى القبائل المتمردة على السلطان والمتحالفة مع بنى عبد الواد، فقام السلطان ووزرائه بهدم اسوار المدينة حتى يتفادهم ولا يتحصن بها العدو^(٣) وتعرضت البلاد الحفصية للخراب والدمار في نهاية حكم السلطان ابي عمرو عثمان اثناء حملاته المتتالية ضد الثائرين عليه الذين خربوا ودمروا كل ما يقابلهم من منشآت وزروع^(٤).

وبعد وفاة السلطان أبى عمرو عثمان مرت البلاد بحالة من الفوضى والاضطرابات تسيطر الوزراء على السلاطين وكثرت الثورات وانعدم الأمن وأصبحت المدن والبلاد الحفصية خراباً وأصاب جميع البلاد الخراب والدمار^(٥) وأصبحت البلاد بلا اسم ولا رسم^(٦) وعانت البلاد أيضاً من التدهور مع الدمار التام والخراب أبان الغزو الأسبان لبجاية^(٧).

ومع ذلك بقيت المباني تثير الإعجاب، ونجح السلاطين المجهودات

(١) ابن خلدون: العبر ج٦، ج١٣، برتشفيك: المرجع السابق ج١ ص٣١٧

(٢) العبدري: الرحلة، الوزان: وصف افريقيا ص٤٣٣، ٤٣٢

(٣) الوزان: المصدر السابق ص٤٢٤، برتشفيك: المرجع السابق، ج١ ص٣٢١

(٤) ابن ابى الصياف: المصدر السابق، ج١ ص٢٣٨، المطوى: السلطنة، ص٦٣٧-٦٣٩

(٥) العامري: المغرب، ص٢١٦-٢١٧، ابن دينار: المؤنس ص١٨٠

(٦) ابن دينار: المؤنس، المطوى: السلطنة، ص٦٤٨

(٧) المطوى: السلطنة ص٦٥٤-٦٥٥

العظماء رغم ما حدث بالبلاد من حروب داخلية وخارجية، ظلت المجوهرات العمرانية الحفصية صامدة أمام العدو الداخلى والخارجى للدولة الحفصية^(١).

البيمارستانات

اهتم السلاطين الحفصيون العظام ووزراؤهم بالطب والأطباء، وتفاوت هذا الاهتمام بمراحل وأطوار الدولة الحفصية بين القوة والضعف، وصارت تونس والمدن الحفصية قبله الاطباء الأندلسيين والمغاربة حيث انتشروا في بجاية وقسنطينة وتونس^(٢) وكانت الميمارستانات أبان فترات القوة والازدهار ذات صلاحية كمركز لتعليم الطب حيث توفرت الأدوية بها، واقبل المرضى عليها وكانوا دائماً أمام مباشرة الاطباء والمتعلمين للطب^(٣) وكان من بين وزراء السلاطين الحفصيين وحاشيتهم الكثير من الأطباء المشهورين وكما ان هؤلاء المدرسين والممارسين للطب والمتضلعين أحياناً في الشريعة والفقه، حيث قام السلطان المستنصر ووزراؤه بالعناية بالبيمارستانات والأطباء وقربوهم إليهم فنجد أن أشهر أطباء السلطان المستنصر ووزرائه هو الطبيب محمد بن اندراس أصله من مرسية جاء إلى بجاية ومنه انتقل إلى تونس وانضم إلى حاشية السلطان المستنصر الحفصى^(٤) وكذلك اهتم السلطان أبو العباس احمد الحفصى (٧٤٧هـ - ١٣٤٦م) بالعمل على تطور البيمارستانات الموجودة

(١) شارل اندرية جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، ج٢، ص١٩٩

(٢) برنشيفك: المرجع السابق، ج٢، ص٣٨٩

(٣) محمد عادل عبد العزيز: التربية الاسلامية، ص٤٧، رشا سالم: المرجع السابق ص٤٣٣

(٤) برنشيفك: المرجع السابق، ج٢، ص٣٨٩

في تونس فأستدعى الطبيب الأندلسي أبو الحجاج يوسف، تلميذ الطبيب اليهودي المشهور ابن ذرزر الذي كان يعد من أشهر أطباء تونس^(١) وعلى الرغم من عدم كثرة إنشاء البيمارستانات في الدولة الحفصية إلا أنه ظهر اهتمام واضح من قبل السلاطين ووزرائهم بالأطباء فنجد السلطان أبا يحيى زكرياء اللحياني ووزرائه قد قربوا إليهم الطبيب الأندلسي محمد بن أبي عيشون فكلفه السلطان أبو يحيى زكرياء بمهام وزير عندما أرسله سفيراً إلى خايمة الثاني ملك أراجون^(٢) لأن القيام بالسفارات كان من مهام الوزراء إبان تلك الفترة وهذا يدل على أهمية وتعظيم دور الأطباء في الدولة الحفصية.

وشارك الأطباء في حل المشكلات وجاء الحكم في قضايا الزواج للكشف عن البنت لمعرفة هل هي بكر أو ثيب^(٣) وقام الأطباء بمعالجة الجروح والدمامل وعمل جراحات في الدولة الحفصية^(٤) وأمر السلطان العظماء وزراءهم الأطباء بتفقد أحوال المرضى^(٥) وأصبح الاهتمام بالمرضى عظيمًا حيث وفرت البيمارستانات للمجانين والمرضى والمجذومين والعميان

(١) ابن القنفذ: الفارسية، أحمد محمد الطوخي: العلاقات الاندلسية الحفصية [٦٣٥-٧٩٨هـ/١٢٣٨-١٤٩٢م] بحوث ندوة الاندلس: الدرس والتاريخ مدار المعرفة الجامعية الاسكندرية، ١٩٩٤م ص ٨٩

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٨٩، أحد الطوخي: العلاقات الاندلسية الحفصية ص ٨٩

(٣) البرزلي: فتاوى، ج ٢، ص ٣٣٨

(٤) المصدر السابق ج ٣، ص ٢٢٢، ص ٢٧٦، ج ٦، ص ٦٦

(٥) ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، ص ٢٩٨.

الفقراء^(١) وكان السلاطين الحفصيون يتخذون لهم اطباء في القصور ويقربونهم اليهم كما فعل ملوك الدولة الزيانية والدولة المرينية في المغرب الأقصى^(٢) وانتشرت المارستانات في جميع المدن الحفصية الكبرى فكان هناك مارستانات في بجاية^(٣).

واستمر توافد الاطباء الاندلسيين على تونس، ومنهم الطبيب الغرناطي احمد بن علي بن محمد عبد البر الخولاني (٧٥٠هـ/١٢٤٩م) وشارك في علاج أهل تونس اثناء الطاعون الاسود الذي تفشى بها اثناء وجوده بالحضرة التونسية^(٤) وايضاً قام الطبيب أبو تمام غالب الشقوري الذي سكن بجاية وبالعلاج أهل بجاية وواليها من قبل السلطان الحفصي^(٥) وعلى الرغم من كثرة البيمارستانات بشكل كبير مثل المغرب المريني ولكن اجريت بعض العمليات الجراحية البسيطة بهذه البيمارستانات، وكانت معظم الادوية من الأعشاب^(٦) التي كانت تجلب من اسواق العشابين^(٧) واهتم السلطان أبو عمرو عثمان

(١) رشا سالم: المرجع السابق ص ٤٣٣

(٢) مارمول كريخال: فريقيا، ج٢، ص١٣١، الوزان: وصف افريقيا، ص٤٢٢، احمد عيسى بك:

تاريخ البيمارستانات، ص٢٤٨-٢٨٦

(٣) ابو حمو: واسطة السلوك، ص٢١، بوزياني الدراجي: نظم الحكم في الدولة منى عبدالواد،

ص١٨٣

(٤) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة: السفر الاول، ص٢١٩

(٥) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٤، ص٢٤٠-٢٤١

(٦) برنشفك: المرجع السابق، ج٢، ص٣٩٢

(٧) مجهول: كتاب الطينح، ص٦٤، الطمار: تلمسان، ص٢٠٩

بالمرضى والمجانين^(١) فقام بتجديد المارستان الموجود شرقى القفصة من أجل المرضى.

ووفر للبيمارستانات سبالة شرقى القفصة^(٢) وأوقف عليها لإدارتها والإنفاق عليها ومن أشهر أطباء هذا البيمارستان الطبي البارع محمد الشريف الحسيني^(٣) وأثناء الاوبئة الشديدة كان العلاج ميئوساً منه، حيث أمر الأطباء بعدم الاستطاعة لعلاج هذه الامراض ولا تستطيع الادوية ان تفيد في هذه الحالات، وعجزت المارستانات على توفير الادوية اللازمة^(٤) وفي عهد الضعف والانحلال واستيلاء الوزراء الضعفاء لا يتوفر الدواء وتقل العناية الصحية، ولا يستطيع الطب البدائي ان يساعد في تقليل نسبة الوفيات^(٥).

وخلاصة القول نجد ان السلاطين الحفصيين العظماء ووزراءهم قد اهتموا بالحياه العمرانية وعمارتها فأمرؤا وزراءهم بإنشاء المدارس والمساجد والمكتبات والفنادق وعماره البلاد وإنشاء المباني الحصينة العسكرية من زوايا ورباطات وأسوار، وقاموا ببناء الفنادق والحمامات والبيمارستانات والرياض وإنشاء الأسبلة والأسواق وغيرها التى ازدهرت إبان فترات السلاطين العظماء ووزرائهم حيث احتضنوا المهاجرين الأندلسيين الذين اثروا فى العمارة

(١) ابن الشاغ: المصدر السابق، ص ١٢٠

(٢) ابن ابى الضياف: تحاف اهل الزمان، ج ١، ص ٢٣٦

(٣) احمد بن عيسى: المرجع السابق، ص ٢٧٩، احمد بن عامر: الدولة الحفصية، ص ٩٣

(٤) محمد بن حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٠٦-٦٠٧

(٥) الدولاتلى: مدينة تونس: ص ٩٣

الحفصية التي اضطبغت بالصبغة الأندلسية، على العكس من فترات واطوار الضعف وسيطرة الوزراء حيث قل الاهتمام بالعمران والعمارة، فتهدمت المنازل بسبب كثرة الصراعات بين الأمراء الحفصيين للاستيلاء على الحكم ودور الأعراب في تدمير تلك المباني.

دور الوزراء فى الأدب

بلغ الأدب قمة المجد والازدهار فى عصر الحفصيين، حيث كثر العلماء والأدباء والشعراء فى البلاط الحفصى بسبب اعتزاز الدولة الحفصية بالخلافة الإسلامية وانتقال الأدباء الأندلسيين إلى العاصمة الحفصية، كآل أبى سعيد أصحاب القلعة المجاورة لغرناطة، وبيت العود الرطب، وابن عصفور، وابن الآبار وغيرهم^(١) كما كان يهتم السلاطين الحفصيون ووزراؤهم بالأدباء والأدب حيث كان السلاطين والوزراء يجوبون مجالس العلم والادب والاستفادة منها مثل سلاطين بنى مرين.

فقاموا بإنشاء المدارس والمكتبات وشجعوا على التأليف وإرسال البعثات للأزهر بمصر^(٢) ووصلت تونس إلى أوج نهضة أدبية وعلمية وثقافية، وكثر علماءها وأدباؤها وشعراؤها من جهة، وازدهرت مراكز الثقافة من مساجد ومدارس وجوامع ومكتبات من جهة أخرى^(٣) وكان القصر من أهم النشاط الأدبى والفكرى حيث كان يشجع السلاطين ووزراءهم لرجال الأدب والفكر وكانت بالعضنة مكانة خصصت لايواء المكتبة الملكية وكان السلاطين والوزراء يلتقون فيها بالعلماء والادباء، وكانت تلقى بها

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسى من فجر الفتح العربى لافريقية إلى العصر الحاضر مكتبة المنار- تونس، [د.ت]، ص ١٨٥

(٢) عبد الفتاح مقلد غنيمى: الموسوعة، ج ٥، ص ٩٩

(٣) ابن الدراج السيتى: كتاب الامتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع: دراسة وإعداد محمد بينشقر، الرباط ١٩٨٢، أحمد الطويل: فى الحضارة العربية التونسية، كتاب العارف، ص ٧

المحاضرات^(١) مما جعل تونس مركزاً وأرضاً خصبة لتعليم فنون الأدب والنقد الأدبي والعروض والنحو والصرف وكانت مركزاً لتأليف الكتب في شتى المجالات الأدبية والفكرية^(٢) وهنا يظهر السلطان الحفصي أبو زكرياء الأول ووزراؤه ومدى اهتمامهم بالأدباء والعلماء، حيث كان هذا السلطان العظيم بارعاً في كثير من العلوم والآداب والفنون، فكان عالماً فقيهاً، بعلم المنطق وأصول الدين، فكان حافظاً للقرآن الكريم والحديث الشريف منذ صغره، فصيح اللسان إلى جانب إجادته للكتابة وإلقاء الشعر الجيد، فكان حبه للعلوم يقوم بمجالسة طلبة العلم والأدباء، فكان يشترك هو ووزراؤه الذين اختارهم مثله محبين للعلم والأدب والأدباء في جميع مجالسه ومناقشاته مع الأدباء والعلماء والفقهاء^(٣) فازدهر الأدب وجميع فنون العلوم

واعتنى السلطان أبو زكرياء ووزراؤه بالعلماء والأدباء وأعطوهم أموالاً طائلة فتقرب اليهم فحول الشعراء والعلماء، لأن السلطان الحفصي أبا زكرياء كان عالماً مجيداً شاعراً محباً للشعراء فكانت الثروة العلمية في عهده قد بلغت الذروة، فترك ستة وثلاثين ألف سفر من الكتب^(٤) فيحدد السلطان أبو زكرياء ووزراؤه مواسم الأدب إلى تونس وأعادوا إليها سوق عكاظ فكان يبالغ هو ووزراؤه في إكرام الأدباء ويرفه عليهم ويخلو بهم ويكافأهم على قصائدهم،

(١) الدولاتلي: تاريخ تونس، ص ٨٤

(٢) أحمد الطويل: في الحضارة العربية التونسية، ص ٨

(٣) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٣، حسن حسني عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسي

ص ١٨٨

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٢- ١١٣

ويغرى بينهم ويفضل بعضهم على بعض^(١) وأصبحت تونس مركزاً لاحتكاك الأفكار والمناقشات الفقهية والخصومات الأدبية والمطارحات الثقافية بتشجيع من الملوك والوزراء وأصحاب الثروة، وكان مبعثها خاصة التنافس لتحصيل على الخطط والمناصب السامية في هذه البيئة الفكرية والأدبية العالية، وكانت المشاحنات تقع من بعض الأدباء الأفارقة وبين بعض الأدباء الأندلسية المهاجرين إلى تونس، مثلما كان من أحمد الغساني وابن الآبار ومن معه أو تقع هذه الخصومات بين الأدباء الحفصيين أنفسهم مثلما بين ابن خلدون وابن عرفه وفرق بينهما أو بين راشد وخصومه وعلى رأسهم إبراهيم بن عبد الرافع ومنهم محمد بن عبد السلام ومحمد بن هارون وكانت هذه المعارك والمنافسات الفكرية بين الوزراء الأدباء أيضاً فكانت أحياناً تؤدي إلى القتل والاعتقال والتأمر لدى السلاطين الأقوياء ليفتكوا بهذا أو ذاك^(٢) ونتيجة لاهتمام السلاطين الحفصيين بالأدباء قربوهم إليهم، وقلدوهم الوظائف الحكومية الرفيعة في دولة بنى حفص، فجعلوهم وزراء الإنشاء وهي وظيفة الكتابة التي تعد من أهم وأخطر الوظائف المعاونة للسلطان الحفصي، وأطلق الحفصيون على هذه الوزارات ديوان الإنشاء والعلامة^(٣) وكانوا يختارون لهذا المنصب الهام أميز وأمهر الكتاب والأدباء الذين يقومون بتدبير الكتب والرسائل السلطانية وقد ترأس عدد كبير من أئمة البيان والفصاحة^(١) وكان

(١) أحمد العامري: المرجع السابق، ص ٥٦

(٢) الطويل: في الحضارة العربية التونسية ص ٩٠-١٠٠

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ٢٨

أئمة البيان والفصاحة^(١) وكان من أشهر هؤلاء الوزير لبن الآبار، وزير القلم الذي هاجر إلى تونس بأسرته، لاجئاً إلى حمى السلطان الحفصي لإنقاذ بلاد الأندلس من ملك أرغونه.

فأنشد بن الآبار السلطان أبو زكرياء الحفصي يصف فيها مسلمي الاندلس وضعفهم وتقهرهم أمام العدو فقال:

أدرك بخيلك خيل الله، أندلساً
وهب لها من عزيز النصر ما التمس
وحاش مما تعانيه حشاشتها
يا الجزيرة أضحي أهلها جزراً

ويستمر بقوله للسلطان

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما
وأمرى طمست منها العدة كما
أيام سرت لنصر الحق مستبقاً
يا الجزيرة أضحي أهلها جزراً

واستمر يستجديه فيقول:

هذي رسائلها تدعوك عن كئيب
وأنت أهل مرجو لمن يئسا

(١) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ص ٢٢٨

(٢) المقرئ: ازهار الرياض، ج ٣، ص ٢٠٧، ابن الآبار: الحلة السيرة،

ج ١، ص ٣٥، المطوى: السلطنة، ص ١٣٧، ابن الشاع: المصدر السابق، ص ٥٩، محمد عبد الله:

تراجم اسلامية شرقية واندلسية، مكتبة الاسرة ٢٠٠١، ص ٣٤٨

ويختتم القصيدة قائلا:

يا أيها الملك المنصور أنت لها
وقد تواترت الأنباء أنك من
طهر بلادك منها إنهم نجس
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرفت
علياء توسع اعداء الهدى تعسا
يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
ولا طهارة ما لم تغسل النجسا^(١)
حتى يطأطىء رأساً كل من رأسا
عيونهم أدمعا تهمى زكاً وخساً^(٢)

وعندما عاد ابن الآبار إلى إفريقية ترك ميناء بنزت وكتب إلى الوزير الحفصي أبى عبد الله وعندما وصل ابن الآبار إلى تونس حتى بلاطه أصبح من رجال الدولة المرموقين ضمه السلطان أبو زكرياء إلى بلاطة وأسند إليه منصب وزير الإنشاء، وكان الوزير ابن الآبار بحكم منصبه على علاقة بالسلطان الحفصي وباقي وزرائه وكان هذا المنصب يقتضى من السياسة والخلق وحسن التدبير عكس ما كان عليه ابن الآبار، فقد كان صاحب أنفة

(١) المقرئ: أزهار الرياض، ج٣، ص٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠، المطوى: السلطنة، ص١٣٧

(٢) المقرئ: أزهار الرياض، ج٣، ص٢١٠ وكانت هذه القصيدة من ديوان ابن الزيات هو استصراخ الاندلس وعرفت بلاد الاندلس والمغرب هذا النوع من الشعر الذى ارتبط بالوطن فى صراسته مع الاعداء ثم ضياعه، وذكرىات الشاعر فى ذلك الوطن، كم ارتبط فى ذلك الوقت نفسه بمشاعر الحزن وصرف العاطفة وقوة الحنين والفجع على ضياع الوطن، واستصراخ الملوك والامراء وشحذ همهم عزيمة المسلمين للقيام بالجهاد ضد الغصارى. راجع: محمد أمين المؤدب: استصراخ الاندلس، فى ديوان ابن الآبار، قراءة فى أعمال ابن الآبار البلبسى الأندلسى، أعمال اليوميين الدراسين ٦، ٧ مارس ٢٠٠٢، إعداد مصطفى القديرى. مكتبة الآداب والعلوم الإنسانية وجده المغرب ج١ ٢٠٠٣، ص ٦٩ ٨٥

وعجب وضيق خلق^(١) وكانت حياته السياسية محاطة بالتنافس والتأمر خاصة من أصيلي الأندلس الذين كانوا معه في البلاط الحفصي، وكان موقعة بالنسبة للسلطان يثير غضب وغيره الآخرين، وكان ابن الآبار يكتب العلامة بالخط المغربي فأشير على السلطان أبي زكرياء الحفصي بأن تحول كتابتها إلى أبي العباس العساني الذين يجيد الكتابة بالخط المشرقي، وقد أحب السلطان أبو زكرياء ذلك، إلا أن ابن الآبار غضب واستمر يكتب الرسائل بالخط المغربي، ضارباً بأوامر السلطان عرض الحائط، رافعاً راية التحدي وعدم الامتثال مما دعا أبو زكرياء الحفصي إلى عزلة عن كتابة الرسائل وألزمته المكث ببيته^(٢) فاستشاط غضباً ورمى القلم من يده وأنشد:

اطلب العز في لظى وذر الذل ولو في جنان الخلود^(٣)

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٢، ص٦٧٢-٦٧٣، ابن الآبار: أعتاب الكتاب، تحقيق صالح الاشتري، مجمع اللغة العربية للنشر، دمشق، ١٣٨٠هـ/١٩٦١ م ج١، ص١٤، المقرئ: نقح الطيب، ج٤، ص٢٨٢، الزركشي: المصدر السابق، ص٢٨، المطوى: السلطنة، ص٢١٦، أحمد العامري: المصدر السابق، ص٦١، ابن القنفذ: الفارسية، ص١١٦، محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، ص٣٥٠

(٢) الآبار: الحلة السيرة، ج١، ص٣٩، أعتاب الكتاب، ص١٣-١٤، ابن الأحمر: مستودع العلامة: ص١١، المطوى السلطنة، ص٢١٦، الزركشي: المصدر السابق، ص٢٨-٢٩، العبادي: دراسات، ص١٩٠

(٣) ابن الآبار: الحلة السيرة، ج١، ص٣٩، أعتاب الكتاب، ص١٣، ابن الأحمر: مستودع العلامة، ص١١.

وكان هذا الصراع بين الوزراء والأدباء الحفصيين حلقة من اجل الوصول إلى اعلى المناصب السياسية سواء من الوزراء الحفصيين وبعضهم البعض أو غيرتهم على الوزراء الأندلسيين الذين جاءوا إلى مشاركتهم في أوطانهم ومناصبهم^(١) والتجأ وزير الإنشاء المعزول ابن الآبار إلى ابن السلطان، الأمير أبى عبد الله يسأله الشفاعة عند أبيه وراح ابن الآبار ينظم القصائد الضارعة معتذراً وراجياً عفو السلطان وصفحه عن ذلته قائلاً:

لمبشرى برضاك أن يتحكما لا المال استثنى عليه ولا الدما
ندمى على ماندمنى دائم وعلامة الآداب أن يتندما

وعكف ابن الآبار خلال فترة نفيه عن الحضرة على تأليف كتاب رفعه إلى السلطان وضرب له فيه الأمثال على عفو الملوك والأمراء على ذنوب كتابهم وقبولهم أعذارهم وسماء (أعتاب الكتاب) وجاءت مساعى الأمير أبى عبد الله محمد مكملة بالنجاح، ورضى السلطان عن ابن الآبار، وغفر له ذلته وأعادته إلى وزارة الإنشاء^(٢).

وكانت الفترة التى قضاهها الوزير ابن الآبار ببيجاية فرصة بعيدة عن التنافس ممن الوزراء وألف كتابين هى (التكملة والصلة) ولكنه كان لا يزال يحمل بداخله كرهاً للوزراء الذين ساعدوا على عزله من منصب وزير الإنشاء^(٣) وعزما المستنصر الحكم بعد وفاة السلطان أبى زكرياء الحفصى جمع

(١) ابن الآبار: الحلة السيرة، ج١، ص ٤٠

(٢) ابن الآبار: أعتاب الكتاب، ص ١٤، ١٥، الحلة السيرة، ج١ ص ٤٣، ٤٢، ابن فضل الله

العمري: المصدر السابق ص ٦٢، محمد عبد الله عنان: تراجم اسلامية، ص ٣٥٠

(٣) ابن الآبار الحلة السيرة، ج١ ص ٤٤، ابن خلدون: العبر، ج٦، ١٢، ص ٦٥٤

حول الأدباء والعلماء وكان ابن الآبار من بين المقربين إليه^(١) وقام وزير الإنشاء ابن الآبار بتأليف الرسائل التي تخلد وصف منشآت السلطان الحفصي المستنصر وإصلاحاته^(٢) ولكن حساد ابن الآبار كثيرون لا يفتأون يكيدون له، وفي مقدمتهم الوزير ابن أبي الحسين الذي كان من ألد أعدائه الحاقدين عليه^(٣) وتمكن الوزير ابن أبي الحسين من أن يوغر صدر السلطان المستنصر على ابن الآبار وأن يحمله على نفيه إلى بجاية^(٤).

ولكن الوزير ابن الآبار استطاع استرضاء السلطان المستنصر الحفصي والفوز بعفوه ولكن ابن الآبار لم يستطع أن يحتفظ برضى السلطان طويلاً بعد عودته إلى تونس وعاد التنافس والحسد من الوزراء له، وهنا سعى إليه الوزير أحمد بن إبراهيم الغساني أحد أهم وزراء السلطان الحفصي الذي كره وجود ابن الآبار بالقرب من السلطان^(٥).

فاتهم الوزير العناني ابن الآبار بالتدبير والتأمر على السلطان^(٦) وكذلك ساعده في هذا الاتهام الوزير الآخر ابن أبي الحسين الذي اتهم ابن أبي الآبار لدى

(١) ابن الآبار: أعتاب الكتاب، ص ١١٥، المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ٢١١.

(٢) المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ٢١١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٦٥٤، ابن الآبار: أعتاب الكتاب، ص ١٥.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٦٥٤، ابن الأحرر: مستودع العلامة، ص ١١-٢٨.

(٥) المقرئ: ج ٣، ص ٣١١، ٣١٥.

(٦) ابن الآبار: الحلة السيلاء، ج ١، ص ٤٤، أحمد العمري: المرجع السابق، ص ٦٣، العبادي:

دراسات، ص ١٩٠، محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، ص ٣٥٠.

السلطان بكرهه للدولة الحفصية مما دعا المستنصر إلى القبض عليه وسجنه^(١) بسبب السعاية به فشكى ابن الآبار وتألم ونعى الزمان على سوء حظه علت سيني في انخفاض وحكم الرب في المربوب راض.

إلى كم أسخط الأقدار حتى كأنى لم أكن يوماً براض^(٢) وأمر السلطان المستنصر وزيره أحمد بن إبراهيم الغساني بتفتيش داره وكتبه ودفاتره فعثر على رقعة فيها هجاء للسلطان يقول طعنى بتونس خلف سموه ظمًا خليفة^(٣).

وعثر عنده على كتاب في التاريخ يسيء فيه إلى السلطان^(٤) فأمر بضربه بالسياط وقتله على أشبع صوره ثم حرقت جثته في محرم سنة ٦٥٨ هـ^(٥) ولم يقف النكال بابن الآبار عند هذا الحد الفظيع المؤلم الموحش بل أحرقوا تأليفه بمرأى ومسمع من البشرية وقيل أنها خمسة وأربعون مؤلفاً فكانت نعم الثروة

(١) المطوى: السلطنة، ص ٢١٧، محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية ص ٣٥٠.

(٢) ابن الآبار: الحلة السيرة، ج ١، ص ٤٤، أعتاب الكتاب ص ١٧.

(٣) ابن خلدون: العبر مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٥، ابن الآبار: الحلة السيرة، ج ١، ص ٤٥، أعتاب الكتاب ص ١٧، الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٥، ابن الأهرم: مستودع العلامة، ص ٢٨-٨٧، أحمد العامري: المرجع السابق، ص ٦٣، المطوى: السلطنة، ص ٢١٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٥، ابن الآبار: أعتاب الكتاب، ص ١٨، ابن العامري: المرجع السابق، ص ٦٣، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢٧.

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٥، ابن الآبار: أعتاب الكتاب، ص ٢٨، الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٦، الحفيلي: شذرات الذهب، ص ٢٩٨، ابن القنفذ أبي العباس أحمد بن حسن بن علي الخطيب، الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، دار الأوقاف الجديدة: بيروت [د.ت.]، ص ٣٢٤-٣٢٥.

العلمية والأدبية تلتها النيران^(١) وتجنّى عليه وحشية الإنسان، فكانت هذه المأساة سببها الوزراء والتنافس بينهما داخل البلاد الحفصي من أجل الفوز بالنفوذ والسلطان والجاه دون وازع ديني للتنافس الأدبي السياسي الشريف، ولكن كانت الأحقاد والكراهية هي المسيطرة على العلاقات بين الوزراء والوزراء الأدباء من ثانية وبين الوزراء والأدباء من ثانية أخرى.

ثم تولى الأديب الفقيه أحمد بن إبراهيم الغساني وزير الإنشاء ((العلامة السلطانية)) بدلاً من ابن الآبار، بسبب حسن كتابته بالخط الشرقي^(٢) وقام بالتقرب إلى السلطان الحفصي أبي زكرياء ووزيره لبن أبي الحسين من أجل استبعاد ابن الآبار من تونس واستطاع بالفعل من تفية إلى بيجاية وانفرد وحده بخطة الإنشاء^(٣) وعندما توفي السلطان أبو زكرياء وتولى المستنصر الحفصي الحكم جعله وزيراً له وقربه إليه وزاد نفوذه داخل البلاط الحفصي^(٤) وكان الوزير الأكبر أبو عبد الله بن أبي الحسين من أشهر الأدباء والشعراء وكان بارعاً في العلوم متقناً فيها، مجيداً وعتيقاً في اللغة وكان يقص الشعر ويحيده، ويرسل فيبرع وكان له تأليف في اللغة سماه (الخلاصة) اعتنى فيه بترتيب كتاب (المحكم) كانت على نسق (الصحاح للجوهري)^(٥).

(١) ابن خلدون: العبر مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٥، ابن الآبار: أعتاب الكتاب، ص ١٨، الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٦، الوليد بن الأحمر: مستودع العلامة، ص ١١، أحمد العامري: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٢) ابن الآبار: إعلام الكتاب، ص ١٣، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٣.

(٣) ابن الآبار: إعلام الكتاب، ص ١٣، المطوى: السلطنة، ٢١٦.

(٤) ابن الآبار: الحلة السيرة، ج ١، ص ٤٣، ابن الأحمر: مستودع العلامة، ص ٢٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٣.

وجاء أبو عبد الله إلى تونس في عهد أبي زكرياء الحفصي وتقرّب إليه وجعله السلطان خاصته بسبب إمكانياته الأدبية والعلمية وتولى الوزراء على عهده^(١) واستمر فيها حتى ثورة ابن اللحياني ضد السلطان المستنصر ونتيجة للتنافس بين الوزراء الحفصيين وانتشاراً الساعةية بينهم فأمر السلطان المستنصر باعتقاله بداره لمدة تسعة أشهر بحجة مساعدته للثأر ابن اللحياني، ثم سرحه وأعادته إلى مكانه، وظل الوزير الأديب الشاعر ابن أبي الحسن هو الرجل الأول في الدولة بعد المستنصر إلى أن توفي سنة ٦٧١ هـ^(٢) وكان له قصائد جميلة يصف فيها الحنايا قرب تونس.

ومحنية الأطلاع تحتوى على الثرى	وتسقى بنات الثرى در الترائب
تعد من الافلاك أن ميارهها	نجوم ارجم المحل ذات الذوائب
واطراقها رقص الغصون ذوابلا	فدارت بأمثال اسيوف القواضب
وما خلتها تشكوى بأجنائها الصدى	ومن بين متنبسها اطراد المذانب
فخذ من مجاريها ودهمة لونها	بياض العطايا في سواء المطالب

وله من قصيدة فريدة يحرض فيها أحد فرسان العرب وهو عنان بن جابر على العودة إلى إفريقية وقد نزح إلى المغرب، مغاضباً للدولة الحفصية طالعها:

سلوا ومنه بين القضا والواجر	هل استبن فيها واكفات الخواطر
ودونكم يال للرجال تحية	يخص بها بنى عنان بن جابر

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ٢٩، حسن حسني عبد الوهاب، تاريخ الأدب التونسي، ص ١٩٩.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ص ١٢، ص ٦٧٢-٦٧٣، المطوى: السلطنة، ص ٢١٥-٢١٦.

فتى مادعنه ذلة فأصابه
وقد كان بينى ياعنان وبينكم
وفي كل عام للجيش وقعة
على كل هولاء القنان كأنه
يربك على عطية مسحة مؤمن
فمد لها سمر القنا فتحالمها
فتحتال اعطاف وتعسل سمرنا
نشاوى على خيل نشاوى كأننا
عزيز علينا ياعنان ضلالة

فكيف طوى كشحا على نفس غادر
بواطن صناها يحفظ الظواهر
يجربها أديالنا جر سادر
ريب سعال لاح في شكل طائر
ويكم في جنبين أضغان كافر
تلين القنا ما بين أذن وحافر
وتهتز كالسمر ابتغاء المضافر
واسيافنا لم تستفق من تسافر
حدث بك لاتلوى على زاجر^(١)

ومع كثرت الأدباء وازدهار الأدب والشعراء في عهد السلاطين العظماء
كثرت حركات القتل للأدباء بسبب الصراع والدسائس بين الوزراء وبعضهم
البعض، وكان هدف كل منهما السيطرة على البلاط الحفصي وظهر هذا التنافس
وتلك الخصومات أثناء الحلقات الأدبية^(٢) وتوالت النكبات للأدباء والعلماء،
حيث لعب وزراء المستنصر الآخرين دورهم في القضاء على الأديب النحوى
المشهور ابن عصفور، فبعد أن قربته السلطان المستنصر وأصبح من جلسائه،
حدث ما عكر صفو العلاقة بين السلطان وابن عصفور في أحد أيام ذى
القعدة ٦٦٩هـ/ ١٢٩٩م، حيث كان السلطان جالساً برياض أبى فھر في
الشعبة التى بناها على الجابية الكبيرة أعجبه المنظر وأحسن بعظمة السلطان
فقال لجلسائه مفتخراً، لقد أصبح ملكنا الغداة عظيماً وكان من بين الحاضرين
أبو الحسن على بن مؤمن المعروف بابن عصفور فرد على السلطان قائلاً «بنا

(١) حسن حسني عبد الوهاب: تاريخ الأدب التونسي، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ص ٢، ص ٤٢٥.

وبأمثالنا» فأسر السلطان الكلمة في نفسه لما فيها من تطاول الأندلسيين على بنى حفص وعندما فرج الأديب الفقيه ابن عصفور أمر المستنصر بعض من رجاله بأن يلقي ابن عصفور في جابية الماء بثيابه، وإلا يتركه يصعد ويخرج من الجابية^(١) وكان ذلك اليوم شديد البرد، فأظهر الحب معه^(٢) فكان كلما حاول الخروج أعيد إلى الجابية، وبعدما خرج أصيب ابن منصور ببرد وحمل شديدين حتى توفي بعد ثلاثة أيام^(٣) ودفن الأديب النحوى ابن مهنا قرب جبانة الشيخ نفيس شرقى باب ينتمى أحد أبواب القصبة^(٤) فكانت أنفة وكبرياء المهاجرين الأندلسيين والتفاخر على أهل البلاد الحفصيين دوره في الصراع والنكبات للأدباء والفقهاء والسياسيين منهم.

وكان من بين الوزراء الأدباء على عهد السلطان المستنصر الأديب الوزير ابن أبي الحسين^(٥) الذى كان يحسن الكتابة، وكان للوزير أبى عثمان سعيد بن الحسين دور كبير فى المرتبة التى وصل إليها أيام المستنصر حيث مكنه هذا الوزير من مساعدته فى التدرج الوظيفى إلى أن تولى منصب وزير الإنشاء

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٩، المطوي: السلطنة، ص ٢١٨.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٩، الغبريني: عنوان الدراية، ص ٢٦٦-٢٦٨، ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٣٠.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٩، المطوي: السلطنة، ص ٢١٨.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٥) هو يحيى بن عبد الله الغافقى وكنيته أبو الحسين أندلساً من أعمال مرسية، وفد على تونس مع الجالية من شرق الأندلس إبان فترة استيلاء العدو النصارى على البلاد. راجع بن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٦٧٧، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٤.

«الديوان» حتى توقفت صلته^(١) بالسلطان الواصل وأصبح من خاصته فولاه الإنشاء واشتد التنافس بين الوزيرين حتى تمكن ابن الوزير الحير وزير الأشغال من حبك الرسائل والمؤتمرات ضد وزير الإنشاء ابن الحسين، وأغرى السلطان الواصل على الفتك به حتى يستولوا على أمواله الكثيرة، فقام يعزله عن وزرائه، وأمر بامتحانه ومصادره أمواله^(٢) وبعد ستة أشهر من التعذيب^(٣) مات سعيد بن أبي الحسين في يوم السبت الثاني لجمادى الآخر عام ٦٤٧ هـ بدار الجوهرى داخل الفصينة ثم أخرجت جثته إلى دار صاحب الشرطة^(٤) ودفنت جثته بمكان مجهول، وبذلك قضى الوزير على وزير آخر من أجل التنافس على المناصب والاستحواذ والتحكم في السلطان، وهنا فقدت الحياة الأدبية واحدًا من الأدباء المتميزين.

وكذلك حدث للأديب أبي العباس أحمد الليانى وزير البحر عندما أمر السلطان المستنصر بالقبض عليه في أول أيام محرم ٦٥٩ هـ، وكان الليانى أديبًا مهتمًا بقراءة الأدب والفقه فقربه السلطان المستنصر إليه ورأس ديوان البحر الذى كان يعتبر بمثابة وزير البحر^(٥) حتى سعى الوزير ابن أبي الحسين وغيره من الوزراء بالوشاية للسلطان ومنوا السلطان بالأموال الكثير التى يكتنزها

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٦٧٧، الزركشى: المصدر السابق، ص ٤١، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٤، المطوى: السلطنة، ص ٢٣٢.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٦٧٧، برنشفيك: المرجع السابق، ص ١٠٤، المطوى: السلطنة، ص ٢٣٣.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٢٧٧، المطوى: السلطنة، ص ٢٣٣.

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤١.

(٥) المصدر السابق ص ٣٦.

ابن اللياني وأنه عازم على القيام بالثورة في المهدية، وامتلاً سمع السلطان من هذا الكلام^(١) فقبض عليه في منزلة، فوجدوا فيه ذخائر من ياقوت وزمرد ولؤلؤ فقبل له ما هذا وأنت تزعم الأمانة، فقال لقد جمعتها لمولانا السلطان، فقالوا لقد وصلت السلطان، وعزم على الفرار في مركبه إلى جزيرة صقلية^(٢) فكان أول من المحرم، وكان الوزير اللغساني بين يدي السلطان في القبة الكبيرة فنزل المطر فقال السلطان: اليوم يوم مطر. قال الغساني ويوم رفع الضرر، فقال السلطان ماذا بعد ذلك فقال الغساني والعام عام تسعة كمثل عام الجوهري، فكان مجلس السلطان منعقد من كبار وزرائه ورجال دولته فقال لهم اسمعوا ماذا قال الغساني وجعل يردد البيت، فقال اقبضوا على الغساني فنرضى به الله والخاصة والعام^(٣) فقبضوا عليه وحمل إلى دار الساة وعذب بها حتى مات ثم أخرجت جثته إلى الصبيان يجرونها ورموها في البحيرة، بعد ما صدرت أمواله^(٤) ومن شعره:

هذا العذيب وهذه نجدُ أين الذي يقضى به الوجد
ما هكذا حال المحب إذا إعلم ربع حبيبة تبدو
سرح ودموع العين مبتدراً ويذكر ماضي عهدهم فأشدُّ
ودعاه كاتب الدولة الوزير أبو العباس أحمد الغساني لحضور مجلسه فقال:

(١) ابن خلدون: العبر مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٥، الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٦.

(٢) الزركشي: المصدر السابق ص ٣٦.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٦-٣٧، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٦،

حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة الأدب التونسي، ص ١٩٥.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٧.

ياسايق الناس إلى غاية
إخوانك الكتاب يرجون ان
فاطلع على الشرب فهم انجم
وسرهم منك بسير المنى
فبعث اللياني:

دام لإخواني بلوغ المنى
وقرب الدهر كل ما
في لذة معسولة المجنى
ما أشواق الصب الى انكم
في حفص عيش وحميد انتظام
راموه من أنيس بغير انصرام
وغيظه موصولة بالدوام
وأشفق اللب بذاك المقام^(١)

واستمر الوزراء ينشدون لبعضهم البعض مما أثرى الحياة الأدبية في عهد
السلطان المستنصر وهذا يدل على ما وصلت له الحياة الأدبية بفضل الوزراء
والأدباء

ومن الأدباء الذين برعوا في الشعر في عهد المستنصر هو أبو الحسن حازم
القرطاجني حيث كان من الأدباء جازماً من أفراد الشعراء العربية وكتابها على
الإطلاق في هذا الطور من أطوار الأدب^(٢) وكان أسلوبه في الكتابة شبيهاً
بأساليب الكتابة في القرن الثاني والثالث للهجرة فكان شعره بريئاً من التصنع
متناسكاً حصيفاً واضح المعالم فلا تقصير يشينه وكان شاعراً في نثره فقال عن
السلطان المستنصر ((ملك جمع له العلم والعمل وطلع على الأيام طلوع

(١) حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة الأدب التونسي، ص ١٩٥ - ١٩٦

(٢) المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ١٧٧ - ١٧٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢٧،

أحمد بن عامر: المرجع السابق، ص ٧١.

الشمس في الحمل فقام به وأمان واعتدل أشرفت إشراق الصباح فضائله
وتدفقت تدفق السحب أنامله وانقسمت بين نفع الفاة وضر العداة شمائله
ووسعت أرباب النهى وطلاب اللهى نوافله فطفر بها أمله ومن شعره.

فالعلم جنانه والرزق من بنانه
والصبح من ثناه والشمس من عيانه
والبرق من ظباه والرياح من عنانه^(١)

وهى قصيدته المشهورة «المقصورة» المشتملة على ألف بيت والمهداة إلى
المستنصر، فمن خلال الأغراض المطروحة فى تلك القصيدة والمخصصة لذكر
الديار المهجورة وصف العاصفة والجمال ومدح السلطان وقصوره
وجيوشه^(٢) وتوفى فى شهر رمضان سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م^(٣).

ومن الأدباء الذين أثروا فى الحياة الأدبية فى العصر الحفصى إبان فترة حكم
السلطان أبى زكرياء الحفصى هو عنان بن جابر^(٤) ونتيجة لخلافات قبيلته مع
السلطان ووزرائه، رحل مع قبيلته إلى المغرب الأوسط خارجين على السلطان

(١) الهادى العامرى: المرجع السابق، ص ٧١.

(٢) المقرئ: أزهار الرياض ج ٣، ص ١٧٧-١٧٨، ابن القاضى: درة الحجال، ج ١، ص ٢٢٠ الحنبلى:
شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٨٧-٣٨٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢٨، أحمد الطويل:
الحياة الأدبية: بتونس فى العهد الحفصى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القيروان، تونس، ١٩٩٦،
ج ٢، ص ٣٦٧.

(٣) المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ١٧٢، برنشفيك: المرجع السابق ج ٢، ص ٤٢٨ عن
أشعاره راجع المقرئ: أزهار الرياض ج ٣، ص ١٧٢-١٨٦.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢٤-٤٢٥، حسن حسنى عبد الوهاب: تاريخ الأدب
التونسى، ص ٢٠٢.

وكانت علاقة الأديب عنان بن جابر مع الوزير أبي عبد الله ابن أبي الحسين قوية ومتينة وجرت بين الوزير والكاتب الأديب الشاعر عنان بن جابر أشعار وقصائد متبادلة^(١) يحث الوزير فيها عنان بالعودة إلى تونس، وبرغبة في مراجعة السلطان أبي زكرياء فأجابه عنان بقوله:

خليلي عوجاً بين سلع وحاجر	يعوج عناجيح فواج ضوامير
قلاص خماص شازبات عرامس	مواض نواض مرقلات عوابر
طوال الهواوى عند كل تنوفة	هملعه الاطراف هدل المشافر
وعوجاً على دار لنا في جنبها	أفاتين لهو دائم غير دائر

ومنها:

فمن كان منا نال عزاً وضعه	ومن حاد دسنا أرضه بالحوافر
وفي الأرض أوطان ومأوى ومسرح	وفي الناس من يرجى لدفع الضرائر ^(٢)

وكان أيضاً من الوزراء الأدباء هو ابن سيد الناس^(*) الذي تولى حجابيه

(١) هو عنان بن جابر بن جامع زعيم قبيلة براداس بن بنى سليم النازحين إلى إفريقية منتصف القرن الخامس، وكان من ملوك بنى حفص يصطنعون رجالات مرداس لأبنائهم بديوان ضدهم، وكانت لهم على ذلك صلات وفوائد وكان رؤساؤهم يقيمون بالحاضرة في خدمة السلطان راجع: حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب الأندلسى ص ٢٠٢.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: تاريخ الأدب التونسي، ص ٢٠٢-٢٠٤.

(*) هو احمد بن أبي بكر بن سيد الناس العمرى من بيوت اشبيلية: حافظاً بالحديث راوية له. ظاهرياً في فقه على مذهب داود وأصحابه، وكانت لأهل اشبيلية خصوصاً من بين الأندلس صلة بالأمير أبي زكرياء عبد الواحد وبيته رحل إلى تونس مع عائلته ونشأ هو وأخيه مع والدهما في الدولة راجع ابن خلدون: العبر، ج ٦، ١٢، ص ٦٨٦-٦٨٤.

ووزارة ولى عهد السلطان أبى إسحاق إبراهيم، حيث برع فى الأدب وكان أديباً محدثاً بليغاً، وكان هذا الأمر يضايق بشده وزراء السلطان أبى إسحاق إبراهيم، فحدثه بطانة السلطات وجرت الوشاة بين الوزراء للتخليص من أبى سيد الناس فكانت الحجة فى ذلك الأمر قوية فأوغروا السلطان بأن الأديب الحاجى ابن سيد الناس يسعى مع أبنه من أجل قلب نظام والاستيلاء عليه^(١) وقام السلطان على الفور باستدعاء ابن سيد الناس إلى رأس الطابية فجاء مسرعاً، فلما حضر، خرج عليه رجال السلطان وشهروا سيوفهم، فأيقن بالموت، فقتل على حاله، وحفرت له حفرة رمى فيها^(٢) فى يوم الأحد عشرين من ربيع الثانى ٦٧٩هـ^(٣).

ومن الأدباء الذين تولوا منصب وزير الإنشاء (القلم) عبد الوهاب بن أبى عبد الوهاب ابن قائد الكلاعى، حيث تولى هذا المنصب للسلطان أبى إسحاق إبراهيم^(٤) فكان ذو الهمة المتعلقة بالكواكب وصدر الفحول إذا تزدهم للكلام فرسان المواكب وله فى ذم كاتب جاهل أنهل فى تلك المناهل:

عنت زمانى فى أمور كثيرة وإنى عليه ما حبيت لعاتب
ليس بحق أن تذم صروفه وكاتب صرف الدهر بالسين حاجب^(٥)

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٦٨٤، الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٤، المطوى: السلطنة، ص ٢٤١.

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٤ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٦٨٤، الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٤.

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٨٤، الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٤.

(٥) ابن الأحرر: مستودع العلامة، ص ٣١.

واستمر الأدباء الوزراء على مقربة من السلاطين الحفصيين وتولوا أهم المناصب في عهد سلاطين الدولة الحفصية، وظلت علاقاتهم مع الوزراء والسلاطين بين الشد والجذب^(١) وتولى الأديب الشاعر أبو القاسم أحمد بن أبي يحيى بن الشيخ الأنصاري وزارة القلم للسلطان الراعي ابن أبي عماره واستمر بمنصبه حتى نهاية دولة الداعي^(٢) متمتعاً بمنصب الوزير والحاجب^(٣) واستمر في منصبه عندما اعتلى عمر بن أبي زكرياء بن عبد الواحد الحفصي العرش يوم الأربعاء ٢٦ ربيع الثاني ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م، فهرب الحاجب الوزير الأديب الفقيه أبي القاسم بن الشيخ عندما علم ذلك في بداية الأمر خوفاً من التنكيل والقتل، فأرسل إلى السلطان مستعظفاً متشفعاً فرد عليه السلطان قائلاً حاجتنا إليه أعظم من حاجته إلينا، وتفويت مثله أو إبعاده لا فائدة فيه إلا الندم، وفعلاً جاءه الحاجب ابن الشيخ فسكن روعه وأمنه وقربه ولازم خدمته عشر سنين^(٤) حتى توفي عام ٦٩٤هـ^(٥).

وهذا يدل على مدى تقدير السلاطين للأدباء والعلماء وكذلك سار على نهجه وزرائه.

(١) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢ ص ٦٩٢، الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٧، ابن الأحرار: مستودع العلامة، ص ٣٢-٣٣.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٩٢.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٤٦، المطوى السلطنة، ص ٢٦٥-٢٦٦، ابن خلدون: العبر، ج ٦، ج ١٢، ص ٧٠٨-٦٠٩، ابن الشناع: المصدر السابق، ص ٨٢.

(٥) ابن القنفذ: الفارسية: ص ١٥١.

وقد استبحر الأدب في عهد الدولة الحفصية استبحارًا وزخر زخرًا بعيدة المدى بتونس حتى كان الملوك والوزراء يوجهون نداءاتهم للجيش وللرؤساء بلسان الشعر، وقد كتب السلطان المستنصر لوزيره أبي عبد الله بن الحسين يأمره بإحضار الجنود لأخذ أرزاقهم بقوله

ليحضر كل بيت ذى منال زكافرعا لإسداء النوال
غدا يوم الخميس فما شغلنا بأسد الوحش عن أسد الرجال^(١)

وبرع الشعراء المحليون الأكفاء بجانب الأندلسيين والمغاربة الذين وردوا على الدولة الحفصية، من الشعراء المحليين ابن الشباط الذي ألف ثلاثة شروح لبعض القصائد الرائجة سوقها آنذاك، ومعارضة شعرية لقصيدة الشقراطسية التي نظمها أحد شعراء تونس من قبله - بماتى سنة^(٢) واستمر الأدب في ازدهاره طوال أطوار الدولة الحفصية سواء كانت أطوار ضعف أو ازدهار، فنجد أن السلاطين الحفصيين ووزراءهم دائما مشجعين للأدب والأدباء، فنجد السلطان يستخدم المداعبات الأدبية الرائقة اللطيفة التي تبرهن عن شغف السلاطين والوزراء بالأدب وعنايتهم به، حيث دخل الأديب الفقيه محمد بن يحيى ابن الحباب التونسي المتوفى سنة ٧٤١هـ. على السلطان أبي عصيدة فوجده قد أكل فأنشده أبو عصيدة مداعبًا:

لقد فاتك الحد، يا ابن الحباب بخن تمسك كثر اللباب
ولمة منه سهى، عظمة وذاك لعمري، الكلاب

(١) الهادي العمري: المرجع السابق، ص ٧٧.

(٢) برنشيفك: المرجع السابق، ص ٤١٩.

فلما وصل في إنشاده إلى قولة طعام بادره الفقيه ابن الخطاب فقل به
طعامكم طعامكم^(١)

وكون الأدباء والعلماء فئة اجتماعية مميزة داخل المجتمع الحفصي يرفعهم
إلى هذه المنزلة علمهم، على الرغم من اختلاف النظرة إلى العلم اختلفت من
فئة لأخرى، فكان العلم والتفقه والقراءة والشعر هما المفتاح للوصول إلى
السياسة والرئاسة والتزهد^(٢) واشتدت علاقات الوزراء والأدباء بسلاطينهم
بشدة، فنجد أن السلطان ابن اللحياني الذي جعل أبو الفضل التيجاني وزيراً
للقلم بعد أبيه وجده^(٣) لأنه كان شاعراً بليغاً وكاتباً عظيماً فكان على الصيت
في العلم والأدب وتميز في فن الرسائل، وخدم في الدولة الحفصية بآرائه وقلمه
في أيام السلطان أبي عصيدة ثم السلطان أبي يحيى زكرياء اللحياني ثم ابنه
السلطان محمد الملقب بأبي ضربة، فكان أبو الفصل كاتب سر هو مدير
أمره^(٤).

ومات أبو الفضل شهيداً في الدفاع عن سلطانه ومن رسائله إلى ابن عمه
عبدالله التيجاني حين ذهب إلى الجهة الحقوية من تونس:

سحقاً لوقضى بتأليف لغدا مكان الإلف غير سحق

(١) الهادي العمري: المرجع السابق ص ٥٨.

(٢) البرزلي: فتاوى، ج ٦، ص ٢٧٠.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ٦٣، حسن حسني عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب
التونسي، ص ٢١٠.

(٤) التيجاني: الرحلة، ص ١٠، حسن حسني عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي،
ص ٢١٠.

أقصى ولولا مادعوه أبا الورى لقصفتة ويقل فيه عقوى
أعليه نذرى فى به ان يحقب التجميع بالتصريف
لم أنس سيل الدمع يوم فراقنا وغرينا متمسكا بغريقت^(١)

ومن شعره يصف موضعاً بواحه قابس

اذكر عشيتنا بساحة عنبر والجو يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النخيل عرائس بسط الحيا بسطاً لها من أخضر أو أصفر
والشمس تستحي فتستر وجهها عنا بسستر للعروس محبراً
يوم بقباس جنة الدنيا وفي قلبى لوشك البنى حرقه مسفر^(٢)

وكان عبد الله بن محمد بن احمد التجاني من كبار كُتاب دواوين الدولة الحفصية وفحول رجالها، تقلب مثل أسلافه في الوظائف الحكومية ورافق الوزير، ونشأ في أسرة تونسية علمية راقية، ودرس على فحول الادباء والفقهاء والمجيدين^(٣) في عصره، ثم تقلب في الوظائف الحكومية، ورافق كبير وزراء الدولة ابن اللحياني في سفره لتفقد شئون المملكة، فتجول معه في الجهات الشرقية والجنوبية من البلاد التونسية مدة عامين ونصف أولها سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م، وتجول صحبة إلى تونس وأقام بها مدة ثم عاد وحده إلى حضرة تونس، وألف رحلته المشحونة بوصف الجهات والحدائق التي زارها،

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص ٢١٠.

(٢) التجاني: الرحلة، ص (كب)، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص ٤١١-٤١٢.

(٣) التجاني: الرحلة: ص (كو)، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص ٢١٢.

وذكر تاريخ كل واحد منها قديماً وحديثاً مع تراجم الرجال النابغين^(١).

وكانت العلاقة القوية بين عبد الله بن محمد التجاني وكبير الوزراء علاقة وثيقة حيث شجعه أثناء فترة التجول في الناحية الجنوبية على تأليف أمتع الرحلات وأكبرها فائدة لمن يبحث عن ماضى البلاد التونسية^(٢) وانعكست علاقات الوزير الأكبر مع الأديب الرحالة التجاني، حيث اهتم السلاطين والوزراء الحفصيون بأدب وفن الرحلة^(٣).

وعندما عاد كبير الوزراء إلى تونس وتمت له البيعة في ٢ رجب ٧١١ هـ / ١٤ نوفمبر ١٣١١ م ودخل الفضية وتسلم زمام الأمر، فأول شيء عمله، هو تقريب ابن التجاني إليه، وعهد كاتب سهره القديم برئاسة دواوين رسائله، وهى خطة العلامة الكبرى أى وزير القلم^(٤) وقام الوزير عبد الله التجاني بالمهام الملقاه على عاتقه على احسن وجه وظل هنا الوزير الاديب يخدم بعملة وعلمه وقلمه البلاد، ويؤلف من حين إلى آخر التصانيف المفيدة^(٥) فى الحديث النبوى والادب واللغة وله قصيده ذات صبغه وعظية صوفية جعلها خاتمة لرحلته:

(١) ابن الأحمر: مستودع العلامة، ص ٣٤، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢١٢

(٢) التجاني: الرحلة، ص (كو)، حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢١٢-٢١٣، خلاصة تاريخ تونس، ص ١٣٨.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٦.

(٤) التجاني: الرحلة، ص، الزركشى: المصدر السابق، ص ٦٣، حسن حسنى عبد الوهاب: ورقات، ج ٣، ص ١٧٠-١٧١.

(٥) التجاني: الرحلة، ص (لد) عن مؤلفاته، راجع الرحلة من ص (لح - مه).

كم أنت في اللذات ذو استغرق
ولقلما يخدى الحتاب إذا أتى
بادر إلى التقوى بدار مسارع
حدثت نفسك بالبقاء ولم يكن
ونذير شيبك مؤذن بفراق
داعى الحمام وقيل هل من راقى
وانهض إلى الطاعات نهض سباق
في هذه الدنيا ليقى باقى
ومنها

يأبى الانسان إنك كادح
والمرء مجزى بما هو فاعل
لله اقلداً أطاعوا ربهم
ووفوا بما اعطوه من ميثاق^(١)
كدحاً وأنت كدحت ملاقى
وجزاؤه جار على استحقاق

فكان السلطان اللحياني محباً للعلماء والأدباء منذ أن كان كبيراً للوزراء
أثناء فتره حكم السلطان أبو عصيدة^(٢) فقرب إليه أيضاً الأديب أبا إبراهيم
إسحاق بن حسينة التونسي، من فضلاء الكتاب وأحذق الشعراء، خدمه
بقلمه دواوين الإنشاء بالدولة الحفصية، وكان صحبة الوزير الأكبر أثناء
هروبه إلى الشرق عام ٧٠٦ هـ وكان مع التجاني أثناء هذه الجولة وقال عند
توديعه لمخدومه الحفصي وقد فارقه أثناء سفره للمشرق:

سَخَا بِنَفْسِي عَلَى إِثَارِ صَحِيَّتِكُمْ
أَكْفَهَا عَنْ مَجَارِيهَا فَبِعَثَّهَا
خَلَاهَا زَمْرَةٌ تَشْتَدُّ طَالِعَةً
عِلْمُ الْيَقِينِ بَانِي أَنْ صَحِيَّتَكُمْ
فَقُلْتُ مَا صَحْبَةٌ وَأَنْ تَصْرَمَهَا
يَوْمَ الْوَدَاعِ وَمَالِي مِنْكُمْ خَلْفَ
حَادٍ مِنَ الْوَجْدِ بِحَرِيهَا فَلَا تَقِفْ
تَكَادُ مِنْ مَرَاهَا الْأَضْلَاعُ تَنْقُصُفْ
أَدْوَى وَشَبَكَا لَمْ يَمَهْلَنْى التَّلَفْ
بِمَدَى بِفَرْقَةٍ وَقَدْ مَالَهُ طَرَفْ

(١) حسن حسنى عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص ٢١٣

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٢٠، المطوى: السلطنة، ابن الشاع: المصدر السابق،

ص ٨٦، حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصه تاريخ تونس، ص ١٣٨.

وفي رجومي رجاء للبقاء به أرجو حصول التلاقي حين تنصرف^(١)

ومع شدة حب الوزير الأكبر السلطان الحفصي ابن اللحياني للعلماء والأدباء ومشاركته لهم وحرصه الدائم على التقرب إليهم ولكنه ارتكب جريمة حضارية لا يغفرها له التراث الحضاري والثقافي في التاريخ التونسي خاصة والإسلامي العربي عامة، وذلك عندما عزم على مغادره البلاد بعد أن سادت أحوالها جمع الأموال وباع جميع الزخائر في القصية حتى الكتب التي كان أبو زكرياء الأول جمعها واستجاد أصولها ودواوينها أخرجت للكتبين فبيعت بدكاكينهم، وهكذا أفرغ خزانة الدولة ذخائرها كما بدد ثروة لا تقدر بثمن من الكتب والتأليف التونسية وما أتى به المهاجرون الأندلسيون منذ عهد السلطان أبي زكرياء الأول^(٢).

وكان القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي من أهم قرون ازدهار الأدب أيضاً حيث بلغ الإنتاج الأدبي والفكري ذروته^(٣) حين حرص السلاطين الحفصيون ووزراؤهم على أن يكون لديهم شعرائهم الرسميين الملحقين ببلاطهم^(٤) حين كان معظم السلاطين والوزراء محبين للأدباء والعلماء مثلما كان السلطان أبو يحيى أبو بكر الذي كان هو ووزراؤه محبين

(١) حسن حسني عبد الوهاب: مجمل الأدب التونسي، ص ٧١٤-٧١٥.

(٢) بن خلدون: العبر، ج ٦، ص ١٢، ص ٧٤٩، الزركشي: المصدر السابق، ص ٦٣-٦٤، ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ٨٦.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج ١، ص ٥.

(٤) برنشفك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢٩.

للأدباء والفقهاء والصالحين^(١) وكان الوزير ابن تافراجين من الوزراء الذين سيطروا على مقاليد الحكم وجعل السلطان الطفل المستنصر بالله ومعه أحد الأدباء الذين قربهم الوزير إليه حيث جعل الأديب الفقيه المعلم الشيخ محمد ابن نزار على قياده الجيش في معركة مرماجنة^(٢).

كما كان السلطان أبو العباس احمد ووزرائه محبين للعلم والعلماء والأدباء والفقهاء، فجعل لهم مجلسًا بالحضرة يحضره كثير من الأدباء والفقهاء ووزرائه السياسيين^(٣) ووزراء القلم لديه فكان أول من كتب له وتولى وزير للقلم هو الفقيه الأديب أبو زكرياء ابن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن وجاد الكومى القسطنطينى وطالت فى ذلك مدته إلى أن توفي فتولى بعده الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم بن حجر، وكذلك كتب له الأديب الكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد عبد الكريم بن كهاد من كبار قسطنطينية^(٤).

وكانت تلك الفترة من أهم الفترات التى كثر بها الأدباء الشعراء فمنهم محمد بن عمر المليكشى وزير الإنشاء للسلطان أبى يحيى أبو بكر، توفي هذا الأديب الوزير عام ٧٤٠هـ ١٣٣٩م وكذلك ظهر أدباء آخريّن مثل محمد بن عبد الله الهوارى واحمد بن عبد الله الرصافى ومحمد بن رأس الحجلة وكانوا جمعهم من مشاهير حملة الأقلام فى الدواوين الحفصية ونال واحد منهم إشعار

(١) ابن الشّاع: المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ج ١٢، ص ٨٣٠.

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص ١٠٦-١٠٧، ابن القنفذ: الفارسية: ص ١٧٧.

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ١٠٧، برنشفيك: المرجع السابق، ص ٢١٩.

مدونة في أغراض الشعر المتنوعة^(١).

وكان من علماء وأدباء تونس محمد الظريف الأديب العالم فكان من صلحاء تونس المشهورين فكان بارعاً في جملة فنون منها الموسيقى وارتبط بعلاقات قوية مع السلطان الحفصي أبي العباس أحمد ووزرائه، وله إشعار رائعة في تهذيب الأخلاق والموعظة الحسنة ومن قصائده في الوعظ.

قم من منامك واسل العجز والكسلا
النوم موت فلا تعباً بلذته
وانظر لنعمة خلاق وما فعلا
واحفظ حياتك لاتبغى بها بدلا
ان المنام لنفسى القلب سكرنه
ويكسب الجسم من افراطه يمكلا
ومنها في وصف الروض:

أما ترى الليل إذ ذكر الصباح على
والروض أصبح ويملي في ثملائه
جيوشه تبعاً في جنبه أفلا
وأشد الطير فوق الغصن وارتجلا^(٢)

ومن أشهر الكتاب والأدباء الذي تولى منصب وزير الإنشاء هو العلامة المؤرخ الشهير والفيلسوف ابن خلدون^(٣) حيث تولى وزير الإنشاء للسلطان

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص ١٣٩.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص ٢١٦-٢١٧.

(٣) ترجع أصول ابن خلدون إلى مدينة أشبيلية حيث عاش أجداده الأوائل ثم انتقلوا إلى تونس في أوائل القرن السابع، فاستقر بتونس أبو الحسن بن خلدون وتأصلوا بها وتولوا أعلى المناصب وكانوا أجمل علم وثقافة رقيقة حيث اهتموا بالعلوم العقلية وعلى درهم سار ابن خلدون راجع: ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص ٤٩٧-٤٩٨، ابن القاضي: جذوة الأقياس، ص ٤١٠-٤١١، سعد زغلول عبد الحميد: ابن خلدون مؤرخاً، مجلة عالم الفكر، صدره عن وزاره الإعلام الكويتية، ج ١٤، العدد الثاني، الكويت ١٩٨٣، ص ٤٥-٤٦، محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معلم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامى،

للسلطان أبى إسحاق إبراهيم الحفصى، فكان ابن خلدون ضليعاً في فنون الأدب والتاريخ حتى صار أعظم رجال زمانه، فأكرمه السلطان وتولى منصب وزير الإسكان في بيجاية حتى قتل سلطانه في حرب مع اخيه سلطان قسنطينة الحفطى وقربه اليه، قيام ابن خلدون بتسليم المدينة^(١) وظل يدرس العلوم بجامع الزيتونة، وانتفع به جمع علماء تونس، فقدم إليه كتابة المشهور العبر وله عدة قصائد في شكوى الزمان.

إلى كم مقامى حيث لم ترد الغلا
ويذهب لى ما بين يأس ومطمع
تعلنى منه أمان فوادع
أما الليالى لا ترد خطوبها
مرادى ولم تعط القياد ذلول
زمان بنبل العلوان بخيل
ويؤنسنى منه أمان مطول
ففى كبدى من وقعت فلول^(٢)

وكان السلطان أبو فارس عبد العزيز ووزراؤه من الذين اهتموا بالأدباء والعلماء موقرين لهم^(٣).

فجعل الأديب الكاتب محمد بن قاسم بن الحجر وزيراً للقلم^(٤) ثم قرب

مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٤، ص ٢٣-٢٥، طه حسين: فلسفة ابن خلدون، ص ١٧-١٩.

(١) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ ص ٢٢.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص ٢١٨-٢١٩. خلاصة تاريخ تونس، ص ١٤٥-١٤٦.

(٣) ابن الشعاع: المصدر السابق، ص ١١٣، الزركشى: المصدر السابق ص ١١٥، ابن دينار، المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ١١٥، ابن الشعاع: المصدر السابق، ص ١١٣، برنشفيك:

إليه الفقيه الفاضل الأمان الشامل المتفنن في العلوم العالم بالمنشور والمنظوم المحصل الأسد أبا عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الأجل المدرس عبد الله القلجاني من كبار بيوتات باجة العلماء^(١) وكان الفقيه الحجة أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي من أشهر فقهاء وأدباء هذا العصر الحفصي وتوفي عام ٢٤ جمادى ٧٩٨هـ / ١٣٩٦ م ومن إشعاره.

علمت العلوم وعلمتها ونلت الرئاسة بل حزتها
وجعالك سنيني عددها بلغت الثمانين بل حزتها
فهان على النفس صعب الحام
فلم تبق لي في الوري رغبة ولا في العلا والنهي بغية
وكيف أرجى ولو لحظة وأجاد عصى مضوا جملة
وعادوا خيالاً نظيف المنام
ونادى الردى ولا لي مغيث وحت المطية كل الخيث
وأنى لراج وحبى أتيت وأرجوها نيل صدق الحديث
بحب اللقاء وكره المقام
فيارب حقق رجاء الذليل ليحضى بدارك عما قليل
وكان رحمة الله، إماماً في العلوم صنف كثيراً منها في جمع أنواع الآداب والعلوم^(٢).

وازدهرت الحياة الأدبية في عهد وزارة أبي عمرو عثمان، حيث قرب إليه

المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٢.

(١) الزركشى: المصدر السابق ص ١١٥، ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص ٢٣١،

القلصادى: الرحلة، ص ٣٤، برنشفيك، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ١٢١-١٢٢.

الأدباء والشعراء وكان أشهر الأدباء والشعراء هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الخلوفا شهاب الدين، فكان يعيش في دائرة السلطان أبي عمرو عثمان، فقربه إليه السلطان والوزراء فكان خاتمة فحول الشعراء في هذا الدرر وغلب على شعره التشبيه المحكم والبديع الرائق، مع تنميق في العبارة وانسجام في اللفظ ورقة في المعنى.

فقال من قصيده يصف طلوع الفجر على روض

وغابت علامات الدجى السود وعندما
وجعاك سـنـينـى عـددتها
تراءت لها رايات شمس الضحى الشمط
بلغت الثمانين بل حزتها
تفدبه اتراس سحب الحيا الخط
وسلق جمين البرق في الشرق صارمًا
وهزت يد الإشراق شمس شعاعها
فيان يقود الرجن من المعها وحظ
وولت نجوم الليل والصبر خلفا
كأمواج بحر فذ تكتتها شمط^(١)

وبعد وفاة أبي عمرو عثمان دخلت البلاد دوامة من الحروب والصراعات وكانت مطمعاً للهجوم الخارجى وكثرت عمليات القتل بين خلفاء أبو عمرو عثمان، وكثرت الاضطرابات، ولجاء السلاطين الضعاف إلى اللهو والملاذات^(٢) وقام الاحتلال الاسبانى والمتواطئون معهم من الحفصيين من تدمير المدينة فقاموا بتمزيق التراث التونسى وحرق ما يقع بين أيديهم من كتب ومؤلفات عظيمة ونهبوا الدكاكين وارتكبوا كل أنواع المحرمات^(٣) فخرج الأدباء

(١) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسى، ص ٢٢٤-٢٢٦.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٣) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٨٦-١٨٧، ابن أبى الضيف: المصدر السابق، ص ٢١١،

حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل الأدب التونسى، ص ٢٣٠.

فخرج الأدباء يعيرون مآسيهم، فقام الأديب العالم ابن سلامه يوصف أحوال البلاد في قصيدته يندب فيها أطلالها ويذكر أيامها المزدهرة وكيف تحولت الأحوال^(١) وكان ابن عبد السلام أبو الفتح من الأدباء الذين ظهروا إبان تلك الفترة، فظهر قصته واشتهر بآه وشاع ذكره وانتفع الناس بعلمه وأدبه وهاجر إلى دمشق وأسقر بها ومن شعره قصيده بعث بها من الشام إلى أهله يتشوق إلى وطنه ويذكر مفاخر تونس.

سلو البارق النجدي عن سحب أجفاني وعما بقلبي من لواعج نيران
فيا طالما الأسحار ما قد تكلفت بإنعاش أشواقى إليكم واشجاني
وتنفيس كرب عن كتيب يتم يحن إلى أهل ويصبوا لأوطان
فله ما أذكر شذا نسمة الصبا صباحاً إذا مرت على الرfid وليان

وسارت سير الشمس وهنا فأصبحت من الشرق نحو الغرب تجرى بحسبان^(٢) وتميزت هذه الفترة يتراجع كبير في الناحية الفكرية والثقافية بسبب انشغال السلاطين ووزرائهم بعروضهم المتداعية^(٣).

وتعددت أغراض الشعر في العهد الحفصي حيث مدحوا الخلفاء والأمراء والوزراء واتسمت مدائح الشعراء بسمة التجديد في المعاني المدحية فقد ظهرت بالإضافة إلى الصفات التقليدية وسموهم بالشجاعة والجرأة والإقدام في الحروب والإيقاع بالأعداء والجود وحسن الأخلاق وأصالة الفكر، وكان

(١) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: مجمل الأدب التونسي، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٣) أبو الحسن على القلصادى: رحلة القلصادى، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨٥، تونس، ص ٢٣، محمد عايد الجابر: فكر ابن خلدون، ص ٣٠٠.

هؤلاء الشعراء لسان الدعوة الحفصية ومبادئ المهدي من تومرت ونراهم
يواكبون أهم الأحداث السياسية والحربية والثقافية التي عاشتها الدولة
الحفصية فجعلوها في قصائدهم المدحية وأشاروا إلى الفتن والمعارك التي
خاضها السلاطين والوزراء الحفصيون ومجدوا المنشآت الثقافية والعمرانية^(١).

فوجد الشاعر الأديب حازم القرطاجني بمدح السلطان أبا زكرياء فيقول

مصطفى الأرومة من	غالب ومتخرب
قد سما إلى مصفر	في العلل له نسب
حده الرضى عمر	صارم الهدي الذرب ^(٢)

وله قصيده في المستنصر

أمن بارق أودى بجنح الرجى	تذكرت من حل الأبارق فالسقطا
وبان ولكن لم يكن بينى عنك ذكره	وشط ولكن طيفه عنك ما شطاً ^(٣)

وهناك مدح للانتصارات العسكرية والمدح بالخصال الفكرية والمدح
يشيد المنشآت العمرانية ومدح الوزراء والأدباء والعلماء وهناك المدح
النبوي^(٤) وانتشرت القصائد الاخوانية بين الأدباء والوزراء مثلما كان الوزير

(١) أحمد الطويل الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
القيروان، ج ٢، ١٩٩٦، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ١٧٧-١٧٨.

(٣) أحمد الطويل: الحياة الأدبية، ج ٢، ص ٣٦٧.

(٤) أحمد الطويل: الحياة الأدبية، ج ١، ص ٣٨٧.

الوزير احمد الغساني وعلاقاته الوطيدة مع زمرة من الأدباء وكان يمازحهم ويقارضهم شعراً في موضوعات أدبية مختلفة^(١).

كما ظهر هناك فن آخر من فنون الشعر يكتسى صبغة شعبية كبرى، وقد كان أهل إفريقية يتعاطونه في عصر ابن خلدون، يعرف باسم الملعبة، فانتشر هذا الفن على نطاق واسع إلى أن وصل إلى المغرب الأقصى وكان رثاء الخلفاء والأمراء والوزراء من أهم مميزات الشعر الحفصي. فنجد من الشعراء من يرثي أحد الوزراء فنجد الأديب الشاعر بن سعيد يرثي أحد وزراء السلطان أبي زكرياء وهو الوزير ابن جامع وفيها مبالغة تدل على تكلف وجزع متصنع. فيقول:

ألا فانتظروا ومعى فأكثره دم ولا تذهبوا عنى فانى ذاهب

وفي القصيدة يعدد الأديب والشاعر ابن سعيد في مراثيته خصال الوزير الفقيد ويعد عن مدى الخسارة الفادحة والمصيبة العظمى بوفاة هذا الوزير^(٢) وكذلك ظهرت أبيات في رثاء القائد هلال الذي كان يحمل صلاحيات الوزراء في عهد السلطان المستنصر ولأنه كان يراعى ويقرب إليه الأدباء^(٣) فيقول أحد الأدباء يرثيه.

وقالوا اثبت المجد؟ قلت لهم: نعم وثانى له حزنى عليه إلى الحشر
ولو كنت حياه يعده لرثيته ولكن روحى سابقته إلى القبر

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٣١.

(٢) محسن حامد العيادي: ابن سعيد الأندلسي، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٧.

وكان هذا الرثاء يغلب عليه التصنع وينعدم فيه الشعور والصدق ويقوم على عنصرين: تعديد مزايا وتصوير الانفعال الشخصي بموته^(١).

ونال الأدباء والعلماء قسطاً كبيراً من الرثاء للعبير عن إحساس صادق وتأثير بالغ بموت أشخاص كان لا يخلون من قيمة علمية لو كان وليداً عن شعور بأداء الواجب إزاء أستاذ أو أديب ومن أهم وأشهر مراثيات الأدباء في العهد الحفصي وعلمائه هي رثاء أبي الفضل التيجاني لشيخه أبي محمد بن عبد الحميد أبي الدنيا الصرفي الطرابلسي في ثلاثين بيتاً وقد برع الراثي في هذا الرثاء فيقول:

أطلق دموعك ولتدع إمساكها قد حل خطب نائراً أسلاكها
وأتى الزمان بنية بالزراء الذي أسر النفوس فما ينطق فكاكها^(٢)

وقد حرص السلاطين الحفصيون والوزراء أيضاً على توديع الفقهاء والأدباء والعلماء إلى مثواهم الأخير لتشجيع جنائزهم، فنجد السلطان أبا عمرو عثمان يخرج هو ووزراؤه لتشيع جنازة العالم أحمد القلشاني^(٣) وتعددت أنواع وأغراض الشعر في رثاء المدن والهجو والغزل بين الأدباء الحفصيين^(٤).

(١) أحمد الطويل: الحياة الأدبية، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٢) أحمد الحبيب بلخوجة: أبو الفضل التيجاني كما يصوره ابن رشيد في رحلته فصل صدر بالنشرة العلمية للكلية الزيتونية للشرعية وأصول الدين العدد ١٩٧١، ص ٢٦٩-٢٧٠، أحمد الطويل: الحياة الأدبية، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦، ابن دينار: المؤنس، ابن أبي الضياف: أتحاف الزمان، ص ١٨٩، أحمد بن عامر: المرجع السابق، ص ١١٠.

(٤) أحمد الطويل: الحياة الأدبية، ج ٢، ص ٤٠٧-٤١٠، ٤٢٧، ٤١٣.

وازدهر النحو والنثر الفنى فى الدولة الحفصية أيضاً حيث كان للوزراء القلم انجازات هامة فى مجال النثر وكثرت المؤلفات^(١) وكان ديوان الإنشاء مصدرًا هامًا لتطوير أسلوب الكتاب والاعتناء بالرسائل السلطنة وتفننوا فى رسائلهم فكانت تحتل الأمثال والإشارات البلاغية والمحسنات البديعية من طباق ومقابلة وتصريح وترجيع وهذا ما ظهر فى رسائل التيجانى الثرية^(٢).

وظهرت شاعرات تونسيات فى عهد الدولة الحفصية وكانت موضع اهتمام السلاطين الحفصيين ووزرائهم منهم زينب التيجانية فكانت شعره عارفه بقوانين الصناعة متمكنة من الأدب، خيالها واسع لأنها تربت فى بيت عريق فى العلم والأدب^(٣) ومن شعرها.

إذ سددت ذوابثها عليها رأيت البدر فى افق السواد
فأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد^(٤)

وكذلك برعت أم العلاء العبد ربه فكانت حافظة للقرآن، بارعة فى العلوم، مليحة الخط، تجتمع بالندوات العلمية وتناضل فى المسائل المهمة، وعملت بالحاضرة فى بلاط السلاطين الحفصيين فكانت موضع اهتمام من جانب وزرائهم^(٥) وكانت سارة الحلية من أدبيات هذا العصر الزاهى واشتهرت بالأدب الغض والعلم الجم والفن الرائع وفدت على السلطان المستنصر فى قصر أبى فهر فسلمت عليه وأنشدت بين يديه قولها فيه:

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٩-٤٢٠.

(٢) التيجانى: الرحلة، ص ٢٨٧-٨٨.

(٣) حسن حسنى عبدالوهاب: شهيرات تونسيات، ص ١١٠-١١١.

(٤) المرجع السابق، ص ١١١.

(٥) المرجع السابق، ص ١١٢.

الشرق يزهو بكم والمغرب وكذا الزمان ليته بكم يطرب
والملك زالمجد والمفاخر والندى كل فخر على مجدك ينسب

وضمها السلطان إلى حاشيته ونالت اهتمامه واهتمام وزرائه^(١)

وخلاصة القول نجد أن علاقة الوزراء بالأدب والأدباء كانت علاقة وثيقة أدت إلى ازدهار الأدب في العصر الحفصي حيث تقرب الأدباء والعلماء إلى السلاطين والوزراء من كل النفوذ والجاه وكان للصراع بين الوزراء الحفصيين والأندلسيين دور هام في ازدهار الأدب الحفصي من أجل الوصول إلى أعلى المناصب السياسية، وكان لوزير الإنشاء دور كبير في الحياة الأدبية حيث التنافس بين الكتاب الأدباء من أجل نيل هذا المنصب الرفيع وبلغت ذروة الازدهار الأدبي في العصر الحفصي للنشاط البالغ والاهتمام والعناية من جانب الملوك والوزراء بالعلماء والأدباء والمفكرين والعطف عليه وإجلالهم بالمكان الأرفع وإسناد المهام والخطط العلمية والسياسية والوقوف على آرائهم الموفقة في نصح السلاطين والوزراء، وكانت للدسائس بين الأدباء والوزراء دور في نقل كثير بين وزراء الإنشاء والأدباء.

ونتيجة لحروب الأسبان والأتراك وغزوهم تونس الحفصية وهجرة آخر جيل من الأدباء والشعراء والعلماء، وموت كثير منهم في الحروب ضد الغزاة خلعت الحركة العلمية والأدبية من أى تقدم وازدهار بل اخفت كثيراً من كتب التراث الحفصي.

(١) المرجع السابق، ص ١١٤-١١٥.

الخاتمة

ومن خلال عرض الباحث لدور الوزراء في العهد الحفصي يمكننا أن نخرج بهذه الحقائق والنتائج وهي:

(١) أن الدار الحفصية مرت بأطوار مختلفة بين القوى والازدهار والضعف والانحلال ونتيجة لذلك تباين من خلالها دور الوزير بين التنفيذ والتفويض حسب قوة وضعف السلطان.

(٢) كان للوزراء الحفصيين دور هام في القضاء على الفتن والثورات التي اندلعت في وجه السلطة الحفصية أثناء قوة الدولة وسلاطينهم بينما قام الوزراء بتشجيع الخارجين على الدولة للقيام بالثورات في وجه السلطة الحفصية الضعيفة إبان أطوار الضعف والانهيار.

(٣) ارتبط السلطان الحفصي بوزيره بعلاقة قائمة على المحبة والاحترام لقرارات السلاطين العظماء الأقوياء، وأحياناً صارت هذه العلاقة علاقة دموية تنتهي بالقتل لأن كثيراً ما رفض سلاطين حفصيون استبداد وزرائهم بهم فكانوا يتخلصون منهم عن طريق القتل أو النفي خارج البلاد، وأحياناً كثيرة سيطر الوزراء والحجاب على السلاطين الضعفاء إبان أطوار الانهيار والضعف.

(٤) لعب الوزراء الحفصيون دوراً في أخذ البيعة ووراثه العرش حيث استغلوا فترات ضعف السلطة الحفصية وانهيارها وقاموا بأخذ البيعة لمن يستطيعون السيطرة على مقاليد الحكم وموارد الدولة كما كان للوزراء الحفصيين دور هام في اختيار ولي العهد حتى في عهد السلاطين العظماء.

(٥) كان للوزراء دور هام وفعال في الحروب الداخلية سواء دفاعاً عن سلطانهم أو دفاعاً عن مصالحهم الخاصة من أجل البقاء على عرش السلطنة الحفصية إبان فترات الضعف والانحيار.

(٦) استخدام الوزراء جميع أساليب الغش والخديعة والساعات من أجل الوصول إلى أعلى المناصب السياسية حتى لو كلف ذلك إراقة الدماء لأشخاص آخرين وقفوا منافسين لهم في عملية الحكم والسيطرة على السلاطين والضعفاء والصغار دون الحلم حتى يستطيعوا السيطرة على شئون الدولة المختلفة.

(٧) لعب وزراء الدولة الحفصية دوراً هاماً في العلاقات والحروب الخارجية مع الدول المغربية المجاورة لها من بني زيان وبني مرين من أجل السيطرة على بلاد المغرب الإسلامي وميراث الموحدين، حيث قام الوزراء الحفصيون بأدوار سياسية مثل عقد معاهدات ومراسلات مع ملوك دول المغرب وأدوار اجتماعية مثل استخدام سلاح الزواج بين بني حفص وبني مرين الذي كان له أثر واضح في تدخل المرينيين في شئون الدولة الحفصية إبان فترات الضعف والانحيار.

(٨) اعتمدت العلاقات الخارجية للدولة الحفصية مع الدول المجاورة لها على مبدأ القوة والسيطرة، فوجد تابعية بني زيان وبني مرين للدولة الحفصية إبان فترات القوة والازدهار على العكس تماماً من تبعية الدولة الحفصية للدولة المرينية واستيلاء بني زيان على أجزاء منها في فترات سيطرة الوزراء وضعف السلاطين.

(٩) ازدهرت الحياة الاقتصادية بشكل كبير إبان فترات قوة الدولة حيث قام السلاطين العظماء ووزراؤهم بالعمل على تنشيط جميع مجالات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية على العكس من فترات ضعف السلاطين وسيطرة واستبداد الوزراء حيث الانهيار التام لجميع المجالات في ظل غياب واضح للسلطة الحفصية حيث انهار الاقتصاد الحفصي على الرغم من وجود بعض الوزراء الذين قاموا بعمل إصلاحات على جميع أصعدة الدولة الحفصية.

(١٠) ارتبط الوزراء الحفصيون بعلاقات مع العامة فأحيانا كانت هذه العلاقات طيبة وساروا بين الناس سيرة حسنة فأحببتهم العامة وتقربوا منهم، على العكس من ذلك فنجد أن العامة كانوا يكرهون الوزراء المستبدين كرهاً شديداً بسبب ما أذاقوه لهم من ظلم وجور فنجد العامة يهجمون على منازلهم أثناء نكباتهم ويستولون على ما فيها من كنوز وأموال.

(١١) ظهرت عملية مصادرة الأموال لدى الوزراء في عهد الدولة الحفصية بسبب الغنى الفاحش للوزراء حيث استغلوا نفوذهم في جمع هذه الأموال فما كان على السلاطين إلا تصفية أموالهم ومصادرتها وقتل الوزراء أحياناً.

(١٢) اهتم سلاطين الدولة الحفصية ووزراؤها بالأحباس فظلت تلقى برسالتها في أطوال القوة والازدهار، ولكن في فترات الضعف وسيطرة الوزراء وقلة الأموال وساءت وحالة البلاد المتدهورة وانهارت الأحباس

بسبب قيام الوزراء بالتسلف من أموال الأعباس مما أثر على دورها الاجتماعي فانهارت الأعباس ومعها انهارت المؤسسات القائمة عليها وانهار معها العاملون في الأعباس والمتفعون منهم.

(١٣) ارتبط الوزراء الحفصيون بالصوفيين ارتباطاً شديداً بسبب ما قدره سلاطينهم لهؤلاء الصوفيين أصحاب الكرامات فنجد منهم من يحمي خوفاً من السلطان عند هؤلاء الصوفيين ولا يستطيع السلطان الحفصي القبض عليهم وهو في حمى الصوفيين، وهناك من الوزراء من حاول التناول على الصوفيين والإساءة لهم ولكن بسبب قوة تأثيرهم الاجتماعي والسياسي فنجد معاملة حسنة لهم من الجميع

(١٤) أعطى سلاطين الدولة الحفصية ووزراؤها اهتماماً كبيراً بالأشراف وخاصة في أطوار القوة والازدهار على العكس من فترات الضعف والانحلال فنجد أن هناك الكثير من ادعى نسبه إلى الأشراف الحقيقيين ومستوى معيشتهم.

(١٥) أقبل بعض الوزراء على الاهتمام بالمنشآت العمرانية من مساجد وزوايا ومدارس وهذا يظهر لنا أن معظم وزراء الدولة كانوا يحبون العلم والعمران.

(١٦) لقي الأدب والأدباء عناية كبيرة من الوزراء الحفصيين وسلاطينهم على مراحل وأطوار الدولة الحفصية إلا أننا نجد أحياناً عوامل الغيرة والحسد انتشرت بين الوزراء والأدباء بسبب ازدياد نفوذ الأدباء ومشاركتهم للوزراء في مناصبهم.

(١٧) اهتم السلاطين والوزراء الحفصيون بالحياة التعليمية وعملوا على تشجيع العلماء وأقاموا الأحباس على الأبنية والمؤسسات التعليمية وعلى المعلمين وقدروا لهم رواتبهم وكذلك حبسوا على طلاب العلم حتى يتفرغوا للتعليم فقط، على العكس من فترات نفوذ الوزراء حيث عانت تلك المؤسسات من الإهمال وهجرها المعلمون وطلاب العلم بعد أن تدهورت الأحباس وتقلصت موارد المؤسسات التعليمية بسبب الحروب والصراعات والتنافس بين السلاطين والوزراء.

(١٨) لا يمكننا إنكار دور الدولة الحفصية من سلاطين ووزراء في منطقة الغرب الإسلامي ودورها البارز في الأندلس وعلاقاتها المتميزة مع الدول الأوروبية مما جعلها أكبر دولة قامت على أنقاض الموحدين أكبر فترة زمنية ممكنة حتى استولى الأتراك عليها في آخر أطوار الضعف والانحلال.